الباب الثالث
مفهوم وطبيعة النفس كأساس للتغيير التنظيمى

- تمهيد.
- الفصل السابع: مفهوم النفس وحاجاتها فى الإسلام والمداخل الأخرى.
- الفصل الثامن: طبيعة النفس وحالاتها فى الإسلام والمداخل الأخرى.

تمهيد

لقد انتهينا فيما سبق إلى أن العامل الحاسم والمؤثر فى إحداث عملية التغيير فى المدخل الإسلامى هو الإنسان بما يقوم به من جهد مخطط ومنظم - أو حتى عفوى غير منظم - لتغيير ما بنفسه ليترتب عليه تغيير ما به، وأن سنة هذا التغيير تقوم أساسًا على أساس جماعى وليس فرديًا، وفى الدنيا وليس فى الآخرة، باعتبارها سنة اجتماعية، وذلك كله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

من هنا كان علينا أن نتجه إلى ذلك المتغير المستقل ونحاول فهمه والتحكم فيه. لنعرف ما هو المقصود بهذه النفوس؟ ومم تتكون؟ وما هى المهمة التى يجب أن تضطلع بها فى هذه الحياة، وما هى حالاتها؟ وطبيعتها، أو موقعها بين الخير والشر؟

كل هذه الأسئلة وغيرها هى ما يحاول الباحث أن يقف على إجابات لها من خلال هذا الباب -بإذن الله تعالى - وذلك بهدف الوقوف على فهم ذلك المتغير المستقل (ما بأنفسهم) ومعرفة أهم ما يتعلق به وما جبل عليه، وما يحقق له التوازن والصلاح، وما يحقق له الخلل والفساد. حيث إن هذا العامل هو ما يجب على المهتمين بعملية التغيير أن يتجهوا بكليتهم إليه، فعلى قدر فهمهم لسنن التحكم فيه وقدرتهم على دفعه للقيام بدوره على أفضل درجة، يكون الفلاح التنظيمى المنشود -بإذن الله تعالى- وعلى قدر التقصير وعدم الفهم لذلك العامل المستقل - الإنسان - وعدم القدرة على تفجير طاقاته الكامنة والاستفادة بكل إمكاناته الظاهرة للقيام بدوره على خير وجه، يكون الخسران والخزى التنظيمى الذى لا مفر منه، والعياذ بالله.

وسوف يتناول الباحث فى هذا الباب دراسة ما سبق من خلال فصلين هما:

الفصل الأول:

ويتناول فيه الباحث تحديد مفهوم النفس، ومكوناتها، وكيفية بدء خلقها، وحاجاتها، ودرجة التوازن فى إشباع هذه الحاجات فى الإسلام وفى المداخل الأخرى.

الفصل الثانى:

ويتناول فيه الباحث تحديد طبيعة النفس وموقفها من الخير والشر فى الإسلام والمداخل الأخرى، وكذلك حالات النفس المختلفة، ومعنى الفطرة التى فطر الله الناس عليها وأهمية ذلك فى تأكيد مدى شمول وعمومية المدخل الإسلامى فى التغيير.

الفصل السابع

مفهوم النفس وحاجاتها فى الإسلام والمداخل الأخرى

تمهيد:

لقد اهتمت دراسات كثيرة بالنفس، باعتبارهما مدار أى حركة للتغيير. ولكن لا يستطيع أحد حتى الآن أن يدعى أنه أحاط إحاطة كاملة بكنه النفس. ومن ثم فإننا فى هذا الفصل سوف نقف قليلاً عند مفهوم النفس فى الإسلام باعتبارها العامل المستقل فى إحداث التغيير، ثم تحديد مكوناتها، وحاجاتهاوعلاقاتها بما يحيط بها من كائنات وأكوان شتى، والغاية التى خلقت من أجلها. ثم تحديد أهم احتياجاتها وكيفية إشباعها فى الإسلام، مع الإشارة إلى موقف المداخل الأخرى من ذلك.

والهدف من كل ذلك هو أن نقف على حدود واضحة وبينة فيما يتعلق بجوهر، ومفهوم النفس، ومكوناتها وحاجاتها، ووسائل إشباع هذه الحاجات، وذلك بالاسترشاد بهدى كتاب من خَلَقَ هذه النفس وسواها، وألهمها فجورها، وتقواها؛ وهو القرآن الكريم.

حول جوهر النفس ومفهومها

أ- ما يجب البحث عنه لفهم النفس:

إن التحديد الدقيق لمفهوم وكنه النفسى وهل هى الروح أو شىء آخر؟ وهل هى الإنسان أو جزء فقط منه؟ إلى غير ذلك من الأسئلة. إن تحديد مفهومها وكنهها على هذا النحو يكاد أن يكون ضربا من المحال فهو أمر اختلف فيه الفقهاء[1] وحار فيه العلماء، ولو كان فيه جدوى لما تركه رب الأرض والسماء « حيث إن القرآن الكريم لم يهتم بكشف الحقيقة عن كنه النفس، لأنه على ما يظهر ليس محل جدوى، إنما اهتم بموضوع التعامل مع النفس لتغيير ما بها »[2].

ولذلك فإن الباحث لن يطيل فى مثل تلك الأمور غير المجدية ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبدلاً من ذلك يمكن السؤال عن: مم؟ وكيف؟ ولماذا؟ فقد وجهنا المولى - عز وجل - إلى مثل هذه الوجهة المفيدة فى البحث والدراسة ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق: ٥]. لان معرفة الإجابة عن مثل ذلك السؤال تمكن من معرفة طبيعة الإنسان ومكوناته وفطرته التى فطر عليها وحاجاته التى لابد منها لكى يصلح حاله، أو بمعنى آخر فإن معرفة ذلك يمكننا من التحكم فى السنن التى يمكن بها تفجير الطاقات الكامنةفى الإنسان.

ومعرفة الغاية (لماذا؟) من خلق الإنسان تعتبر أيضًا أمرًا مهما وهذه الغاية يحددها، ويدلنا عليها من خلق الإنسان فإنه - سبحانه وتعالى - لم يخلقه سدى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠] بل سبحانه حدد تلك الغايةفقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. « وذلك هو الامتثال للبارئ -عز وجل- فى أوامره ونواهيه »[٣]. فالعبادة هنا بمفهومها الشامل الذى يتضمن كل ما أمر به الله وكل ما نهى عنه سواء كان ذلك فى فرض من الفروض العينية، أو الفروض الكفائية. فكل ما أمر الله به من كمال، وما نهى عنه من نقص أو أيا كان مجاله، سواء كان على المستوى الفردى، أو الجماعى فى أمر الدين، أو فى أمر الدنيا فإن من شروط العبودية الامتثال لما أمر الله به، ولما نهى عنه.

ونظرًا لأهمية تحديد الغاية من خلق الإنسان أو ما لأجله وجد إلى النظر فى ذلك العمل لتحقيقه - وهو ما سوف يتم الحديث عنه باستفاضة فى موضع آخر من هذا الفصل - بإذن الله تعالى.

أما ما نريد العودة إليه هنا، فهو أن الاهتمام بكنه النفس، أو الروح، أو غير ذلك من الأمور ليس موضع بحثنا، أو أى بحث جاد.

وأما ما يجب الاهتمام به - كما وجهنا القرآن الكريم - فهوكيفية حدوث الأشياء، « فالسؤال عن (كيف)، كيف نحصل على الماء؟ وكيف تصنع النار؟

وكيف نربى الإنسان ونعطى له أخلاقًا؟ وكيف ننشئ المجتمع الصالح؟

... فهذه أسئلة مفيدة، لأن معرفة الإجابة عنها تجعل الإنسان سلطانًا على الكون المسخر له. لهذا يأمرنا الله أن نسير فى الأرض، وننظر كيف بدأ الخلق ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] لأن معرفة كيفية تكون الخلق تظهر سننه، ومعرفة هذه السنن هى التى تعزز سلطان الإنسان على هذا الكون المسخر له »[٤].

إذن فمهمتنا فى هذا الفصل يجب أن تتجه إلى مثل هذه الأسئلة المفيدة، كيف بدأ خلق الإنسان؟ ومم خلق؟ وعلى أى شىء جبل؟ ولماذا خلق؟ وكيف يمكن له أن يحقق الفلاح؟

ب- مفهوم النفس:

أما عن مفهوم النفس الذى سوف يقصده الباحث فى هذا البحث فهو هنا ذلك المفهوم الشامل الذى يعنى الإنسان كله، كما استخدمه القرآن فى أكثر من موضع[٥].

والإنسان هو كل مركب من جسم مدرك بالبصر، وروح مدركة بالبصيرة[٦] وإليهما أشار الله تعالى بقوله: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١: ٧٢].

وهذا الإنسان هو العنصر الأساسى الفاعل الذى جعل الله له سلطانا على تغيير ما بالنفس ليغيرالله ما به.

جـ- تغيير ما بالنفس وليس تغيير النفس:

ولعل من الأمور الدقيقة، والتى يجب أن نلحظها هى أن تعبير القرآن فيما يتعلق بالتغيير والذى ورد صريحًا فى آيتين فقط كسنة عامة، لم يأت بقول (حتى يغيروا أنفسهم) ولكن جاء فى الآيتين ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١؛ الأنفال: ٥٣] فواضح من الآيتين أن التغيير يكون لما (بالأنفس) وليس (للأنفس) وهذا أمر فى غاية الأهمية وله دلالات كثيرة وهامة للمهتمين بأمر التغيير، منها أن النفوس نفسها إنما خلقت من جوهر ثابت لا يتغير، وأنها جبلت على فطرة لا تتغير منذ وجدت على ظهر الأرض وإلى أن تقوم الساعة ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

« فالله خلق الإنسان، وأودع فيه دوافع فطرية تعبر عن تكوينه الخاص الذى تتفرع منه غرائزه التى تشكل أساس وجوده، ولا يمكن للزمن أن يبدل، أو يقتل تلك الغرائز والنوازع الفطرية، فهى أصيلة فى حياة الإنسانية، فالإنسان هو الإنسان من حيث تلك الصفات الجوهرية. نعم إن تلك الغرائز يمكن أن تهذب، وتوجه فى ظل مذهبية متناسقة حتى تتحرك فى مساراتها الصحيحة ولاتنتهى إلى انحرافات خطيرة، وأمراض نفسية، وجنسية، واجتماعية معقدة.

إن حركة الإنسان فى التاريخ لم تكن تتحرك باتجاه محاولة تغيير العمق الإنسانى بقدر ما كانت تتوجه أساسًا إلى محاولة إحداث التبديل فى علاقة الإنسان بالعالم الخارجى، أى علاقته بما حوله من الكائنات الحية، وتستخيره للقوى التى أودعها الله فى هذا الوجود »[٧]. « ولقد ضل كل من حاول أن ينحى بالإنسان أى ناحية تنفى تلك الفطرة وما فيها من غرائز، بل وتدعو إلى قتلها ولم يتحقق قط ما أرادوه وتوهموه »[٨].

فالتغيير يكون إذن لما بالأنفس سواء تغيير ما وضع فيها من مفاهيم، أو أفكار، أو معتقدات، أو اتجاهات، أو غير ذلك، أو بوضع ذلك وإنشائه فيها ابتداءً، أو بكليهما، ولا شك أن تغيير ما هو قائم وموجود فى النفس يعتبر أصعب خاصة إذا وصل إلى درجة كبيرة من الرسوخ والتعود. غير أنه نظرًا لتغيير معظم النفوس واكتسابها لكثير من الأفكار والمعتقدات الخاطئة فإن الأمر يحتاج إلى عملية تغييرية ذات شقين: هدم لما هو موجود وإزالته، وهذا له سننه، ثم غرس لقيم، وأفكار

ومعتقدات يعتقد أنها هى الأفضل – وذلك كله فى حدود ما وجهنا إليه خالقنا عز وجل – ولهذا أيضًا سننه وأساليبه.

د- خلاصة:

فلعلنا نخرج بعد ذلك بحكمة من دقة كلمات وآيات القرآن المعجزة فى اختيار الألفاظ والحروف، وهى أن توجهنا يجب أن يكون نحو تغيير ما بالأنفس نفسها وما جبلت عليه، ولا يجب أن نشغل أنفسنا بكنه هذه الأنفس ولا لماذا يؤدى تغييرها إلى تغيير ما بالقوم؟ فهذه السنة نعلمها ونعرفها بتوجيه من الله – عز وجل – ونحاول أن نستفيد بها تمامًا كما نعلم قانون الجاذبية، ونحاول الاستفادة به ولا نسأل لماذا، وما هى علة ذلك؟، وكما يقول (كلود برنارد) فى مدخل دراسته للطب التجريبى «فالعالم الذى سار بالتحليل التجريبى إلى الحتمية بالنسبة لظاهرة ما، لاجرم يرى فى وضوح أنه يجهل هذه الظاهرة فى علتها الأولى. وإن كان قد بسط سلطانه عليها. فهو يجهل الأداة التى تعمل وتتصرف، وإن كان فى استطاعته الانتفاع بها»[٩].

ولقد علمنا أن مفهومنا للنفس هو الإنسان كمركب من جسد وروح ولنمضى بعد ذلك فى بحثنا لنعرف كيف بدأ خلق الإنسان، ومم خلق؟

مكونات خلق الإنسان والغاية من خلقه وعلاقته بما حوله

أولاً: كيفية خلق الإنسان ومكوناته:

ليس هناك أى مصدر يمكن أن يحدثنا حديثًا يقينيًا صادقًا عن كيف بدأ خلق الإنسان إلا الله – سبحانه وتعالى – وأن أى محاولة أو جهد يبذله الإنسان لمعرفة ذلك من عند غير الله سوف ينتهى – كما انتهى من قبل – إلى لا شىء.. إلى مجرد ظنون، وأوهام، أو تخمينات[١٠].

فماذا حدثنا قرآننا الكريم عن بدء خلق الإنسان، ومم خلق؟

إن الآيات التى تتناول الخلق، كثيرة وتكررت فى أكثر من موضع منها ما يتناول قصة بداية الخلق، كيف خلق آدم أبو البشر؟ وكيف خلقت حواء أمهم؟ ومم خلقوا؟ ولماذا خلقوا؟ وما هى علاقاتهم بكل ما يحيط بهم، وبالله، وبالكون وما يشمله من جميع المخلوقات؟ ثم ما هى الأدوات التى زود بها لكى يؤدى مهمته؟ وكيف تسير عملية الخلق والتناسل بعد ذلك؟

باستقراء آيات القرآن الكريم التى تناولت بداية خلق الإنسان، ومم خلق نجد أن الإنسان خلق منذ البداية من عنصرين وهما:

١- الطين والذى يكون الجسد المادى الملموس والمنظور بالبصر.

٢- ونفخة الله والتى هى الروح والتى لا يمكن إدراكها أو تحديدها إلا بالبصيرة.

ثم كان بعد ذلك تناسله من خلال عملية التزاوج، بعد أن خلق الله حواء زوجة لآدم من ضلعه، فأصبح نسله من سلالة من ماء مهين يمر بأطوار معينة ثم ينفخ فيه الروح، ليظل الإنسان فى النهاية مكونًا من عنصرين وهما: الجسد الذى أصله من طين، والروح التى هى نفخة من الله، ومن تلك الآيات التى تلخص ما سبق: قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [السجدة: ٧: ٩].

ففى هذه الآيات يتضح كيف بدأ الخلق، وكيف تطور ، ومم خلق الإنسان، وما هى الأدوات التى زود بها ليقوم بمهمته المنوطة به ولشكر الله على ما أنعم عليه، وهى السمع والأبصار والأفئدة. ومع ذلك فقليلاً ما يشكر الله على كل هذه النعم، وذلك باستخدامها فيما خلقت من أجله أفضل استخدام يحقق الفلاح للإنسان فى الدنيا وفى الآخرة. والشكر هنا لا يكون شكر لسان فقط ولكنه شكر جميع الجوارح، والعقل، شكر العمل والقول ولذلك فإن أكثر الآيات التى ورد فيها إشارة إلى خلق هذه الأدوات (السمع، والأبصار، والأفئدة) تقترن بها قلة الشكر كقوله أيضًا: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الملك: ٢٣] ثم نمضى مع الآيات التى تبين كيف، ومم خلق الإنسان ففى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [ص: ٧١ : ٧٢]. وفى آيات أخرى يقول تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ [الطارق: ٥ :٧] وقوله تعالى أيضًا موضحًا كيف يتطور خلق الإنسان فى بطن أمه : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ** ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [فاطر: ١١] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٤].

من هذه الآيات وغيرها يتضح لنا أن الإنسان بدأ خلقه من طين، ثم نفخ فيه من روح الله، ثم تناسل بعد ذلك عن طريق التزاوج ولكنه ظل على حالته التى خلق عليها منذ أول مرة وهى الجسد، والروح. وأنه خلق مزود بما يمكنه من الحياة الكريمة على هذه الأرض كخليفة لله فى أرضه، من سمع وبصر، وفؤاد وغيرها من أدوات الحس والإدراك التى زود بها الإنسان بالإضافة إلى العلم الذى زود به منذ خلق بمعرفة أسماء جميع الأشياء التى سوف يتعامل معها، وينتفع بها فى حياته الدنيا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ آدَمَ**

الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣٠: ٣١] وقوله أيضًا: ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١: ٤].

ثانيًا: الغاية من خلق الإنسان:

فإذا علمنا أن الله - سبحانه وتعالى - قد خلق الإنسان من طين ونفخ فيه من روحه، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ليستمر تناسله من خلال عملية التزاوج، ثم زوده بكل ما يمكنه من الحياة والقيام بكل ما يكلف به ويطلب منه، فجعل السمع، والأبصار والأفئدة، وغيرها من أدوات الحس، والإدراك، والحركة، والتفكير التى تمكنه من القيام بمهمته، ليس هذا فحسب، بل وزوده منذ أن خلقه بالعلم الذى يمكنه من الاستفادة من كل ما يحيط به من أشياء أفضل استفادة، حيث علمه البيان، وعلمه الأسماء كلها (وهى أسماء كل شيء. من الناس والدواب وسماء وأرض وجو وسهل وبحر، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها مما دق، أو عظم، أو صغر، أو كبر، منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، ذكر ذلك: ابن عباس، ومجاهد وغيرهم)[١١].

بقى أن نعرف بعد ذلك ما هى الغاية والهدف من وراء الخلق؟ وهذه الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان ليس فى وسع أحد أن يجتهد فى تحديدها، ولكن من الأمور المسلمة والبديهية أن من خلق هو الذى يحدد الغاية، والهدف مما خلق وعلى المخلوق أن يحاول جهده وطاقته أن يقوم بدوره لتحقيق هذه الغاية، وأن يكون جل هدف القائمين بالتغيير فى أى زمان ومكان هو التأكد من مدى قيام الإنسان بدوره لتحقيق ما خلق من أجله، فإن كان قد انحرف عن أداء هذا الدور لتحقيق تلك الغاية فيجب أن تتم إعادته إلى الحق وتغيير ما غيره من الباطل ويظل دائمًا فى حالة العطاء الكامل لتحقيق دوره فى تلك الحياة.

وهذه الغاية حددها الله - عز وجل - فى أكثر من موضع وفهمها البعض بأكثر من فهم، فقال الراغب الأصفهانى مثلاً: «والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١- عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] وذلك تحصيل ما به تزجية[١٢] المعاش لنفسه ولغيره.

٢- وعبادته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك هو الامتثال للبارى - عز وجل - فى أوامره ونواهيه.

٣- وخلافته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وغيرها من الآيات، ذلك هو الاقتداء بالبارى -سبحانه- على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة.[١٣] ثم يبين الراغب بعد ذلك أن شرف الإنسان إنما يكون فى مدى قيامه بما وجد من أجله على خير وجه، والذى من أجله فضل على سائر خلق الله فإن لم يقم بذلك نزل إلى مرتبة أقل من مرتبته فكان كالأنعام بل أضل حيث يقول: «وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه.. فمن

لم يصلح لخلافة الله تعالي ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه، ولذلك قال تعالي في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٤][١٤]، ثم يعلق المحقق د. أبو اليزيد العجمى قائلاً: « فقد حدد الراغب غاية وجود الإنسان فى العبادة والخلافة والعمارة، وبدت وكأنها متفرقة والحق أنها شيء واحد ذو وجوه، يجمعها كونها حمل الأمانة - لنقلها من جيل إلى جيل خلفا عن خلف وفى حملها عمارة الأرض لأن من فروض الدين الأمر بالسعى والعمل، وبذلك لا تحقق إنسانية الإنسان بماأودع فيه من طاقات، لكنها تتحقق باستخدام ذلك فيما خلق له »[١٥].

وهذا هو تقريبًا ما ذهب إليه أيضًا سيد قطب حيث قال « إن غاية الحياة الإنسانية كما يقررها الله - سبحانه - هى عبادة الله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾.. هذه العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى تتمثل فى وظيفته التى خلق لها، وهى الخلافة عن الله فى هذه الأرض بهدى الله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠]

وما تتطلبه الخلافة- على هذا المستوى وفى هذه الحدود - من تركيب خاص، من طاقات وقوى خاصة، ومن ملامح وسمات، وخصائص واستعدادات.. هو الذى يمثل حقيقة الإنسان. فهذه الحقيقة هى مقتضى الوظيفة، أو مقتضى غاية الوجود الإنسانى.

والإنسان فى هذه الخلافة على ذلك المستوى، وفى هذه الحدود يتعامل مع الوجود كله، ومع خالق الوجود ابتداء:

يتعامل مع الله - سبحانه-.. ويتعامل مع الملائكة..ويتعامل مع الشياطين.. ويتعامل مع الأحياء فى هذه الأرض من نبات وحيوان.. ويتعامل مع الكون المادى.. ويتعامل مع عالم الغيب كله إلى جانب عالم الشهادة وهو لكى يتعامل مع هذه العوالم كلها، ليؤدى بهذا التعامل وظيفته، وليحقق غاية وجوده.. يحتاج إلى تكوين خاص للتعامل مع هذه الأبعاد والآماد فى كل اتجاه.. وكذلك ندرك حقيقة الإنسان من إدراكنا لوظيفته وغاية وجوده »[١٦].

ثالثًا: العلاقة بالكون المحيط به:

فالإنسان - إذن - خلق بغاية ولوظيفة معينة يؤديها.. وهى القيام بحق العبودية كاملاً لله، والذى يتضمن من بين ما يتضمن، عمارة الأرض وآداء أمانة الخلافة عن الله فى الأرض بحقها، والالتزام فى ذلك بكل أمر، أو نهى من الله تعالى، وهو مزود بكل ما يمكنه من القيام بهذا الدور، من جسم، وروح، وسمع، وبصر، وفؤاد، وكافة وسائل الإدراك، والحس، والحركة، والفكر، ومن علم، ومن كون سخر له كل ما فيه من أرض، وبحر، وكواكب، ودواب، ورياح، وسحاب، وشمس، وقمر.. وغير ذلك فهى صديقة له ممهدة ومسخرة لكى تخدمه، فإن قام هو بحق العبودية

خير قيام، فإنهما حينئذ يسيران متناغمين، ومتسقين، ومنسجمين، لأنهما يؤديان معا نفس المهمة وهى العبودية لله تعالى.. فهذا الكون مسلم ومسبح ومصل لله.. وإن أعرض الإنسان ونأى بجانبه فإنه يكون فى حالة تنافر مع ذلك الكون المسلم، ويمكن تلخيص كل ما سبق فى شكل (٩) ويؤيد ذلك آيات كثيرة ومتعددة فى القرآن منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] وقوله: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥: ١٨].

ومن الآيات الدالة على أن الكون كله يسبح لله وأنه كون مسلم، قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجمعة: ١][١٧] وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أسلمة الكون كله لله فى صلاة، وتسبيح، كل قد علم صلاته وتسبيحه، وليس هناك فى هذا الكون من يشذ عن ذلك، إلا ذلك الإنسان الذى منحه الله حرية الاختيار وحمله الأمانة وجعله المسئول الأول عن تغيير ما بنفسه وتغيير ما يحيط به وما يصيبه.

مما سبق يتضح أن الإنسان يمثل نظامًا مفتوحًا وليس مغلقًا، وإنه يؤثر ويتأثر - ليس فقط - بمن حوله من الناس، والمنظمات، وإنما يمتد هذا التفاعل والتأثير المتبادل فى المنهج الإسلامى إلى مدى أعمق من ذلك، وهو ذلك المدى الذى يشمل الكون كله فى وحدة واحدة مسبحة، وعابدة للمولى - عز وجل - كما أوضحها شكل (٩). وفهم هذه العلاقة بهذا الشكل والوضوح يعتبر أمرًا هامًا فى المدخل الإسلامى للتغيير التنظيمى، فهو ذو علاقة وثيقة بما سبق أن ذكرناه فى الفصل الثانى من البحث عن مجالى التغيير (ما بالقوم، وما بالأنفس) (شكل، ٣). فإن الكون الفسيح بكل ما فيه من خيرات وموارد وإمكانات هائلة أودعها فيه المولى - عز وجل - هو المصدر الذى من خلاله يمكن للإنسان أن يحقق الفلاح فى الدنيا وذلك من خلال تغيير ما بنفسه ليصل إلى أعلى درجة من الإيمان بالله والعمل الصالح والخلق الفاضل ليقوم بأداء حق عبوديته لله كاملاً من خلال القيام بدوره فى استعمار الأرض والاستخلاف فيها.

حاجات الإنسان الفطرية وإشباعها

أولاً: أهمية فهم الحاجات الحقيقية للإنسان:

إن معرفة حقيقة تكوين الإنسان هى التى تمكننا من معرفة حاجاته الحقيقية ومعرفة هذه الحاجات الحقيقية هى التى تمكننا من تحديد أفضل السبل لإشباعها فالإشباع المتوازن والكامل لهذه الحاجات دون خلل أو زيادة أو نقص هو الذى يؤدى إلى إيجاد الإنسان المتوازن القادر على الإبداع والقيام بدوره والاستفادة بكل طاقاته ومواهبه كاملة فى أداء الأمانة والقيام بحق الخلافة وتحقيق الفلاح، وإن عدم الفهم لطبيعة الإنسان وطبيعة حاجاته ودوافعه يؤدى إلى خلل فى

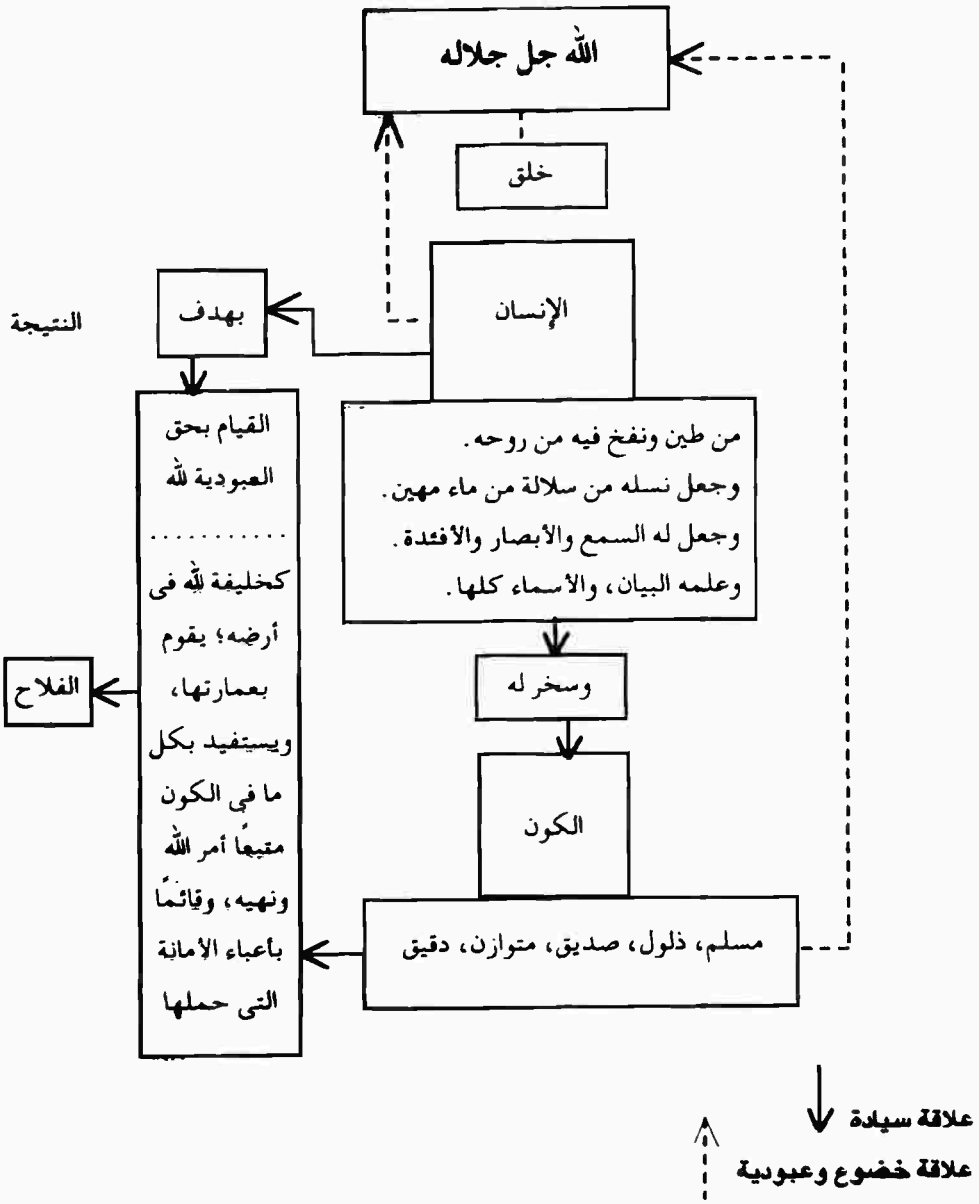

شكل (٩) الإنسان، مم خلق، ولماذا خلق؟ وعلاقته بخالقه وبالكون المحيط به

إشباعها ومن ثم إيجاد إنسان مختل وغير متوازن – إن وجد فيه شيء، فقدت أشياء أخرى كثيرة –لا يستطيع القيام بوظيفته وأداء دوره الذى من أجله خلقه الله.

ومن هنا كانت أهمية تحديد مم خلق الإنسان، ولماذا خلق. فلقد ضل كثيرون فى متاهات، وظنون حول طبيعة الإنسان، ومم خلق، ولماذا خلق؟ وما هى حاجاته وما هى دوافعه؟ وانحرفت الأفكار والعقول كثيراًحينما ابتعدت عن ذلك المنهج الربانى الواضح المستقيم الذى بين لنا الحق، فكانت نتيجة هذا الضلال وهذه الانحرافات مآسى كثيرة ارتكبها الإنسان فى حق الإنسان. فهناك من اعتبر الإنسان مادة وشهوات وأغرق فى إشباع ذلك. وهناك من اعتبر الإنسان روحًا ونظر إلى ما عدا ذلك من شهوات، وغرائز باعتبارها إثما يجب أن يقتل ويقضى عليه[١٨]. وقلما وجدنا دينا، أو مذهبًا أو حضارة نظرت نظرة متكاملة للإنسان واعترفت بأن له حاجات مادية، وحاجات روحيةيجب أن تشبع إشباعًا حلالاً متوازنًا، مثلما فعل الدين الإسلامى الذى يعترف بأن للإنسان لكى يحيا متوازنًا نوعين من الاحتياجات وهما:

١– حاجات مادية لإشباع الجانب المادى فى الإنسان.

٢– حاجات روحية لإشباع الجانب الروحى فى الإنسان.

ليس هذا فحسب بل ونوه أيضًا على ضرورة إشباعهما إشباعًا متوازنًا، وحدد ذلك والضوابط اللازمة لإحداث هذا الإشباع كما سيتضح فيما بعد.

ثانيًا: نظرة المداخل الأخرى لحاجات الإنسان والخلل فى إشباعها:

أ – تقويم عام للخلل الموجود فى المداخل الأخرى لأحد علماء الغرب:

لكى ندرك مدى ما يعانيه الآخرون من تخبط، واضطراب وخلل وقصور سواء فى الفهم، أو فى العمل والممارسة نسوق بعض ما قاله أحد كبار علماء الغرب فى ذلك حيث يقول: « . . وبتعلمنا سر تركيب المادة، وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبًا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا أنفسنا ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة، والإنسان بصفة خاصة، لم يصب هذا التقدم. . إنه لا يزال فى المرحلة الوصفية. . فالإنسان كل لا يتجزأ وفى غاية التعقيد ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه فى مجموعه، أو فى أجزائه فى وقت واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى. . وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهوداً جباراً لكى يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا. . إننا لا نفهم الإنسان ككل. . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التى يلقيها

على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة»[١٩]. ثم هو يعترف بالتقدم غير المتوازن فى الحضارة الغربية حيث يقول « .. وهكذا أدى قهر العالم المادى الذى استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة إلى نسيان العالم العضوى والروحى نسيانًا تامًا..» ثم يختتم هذه الفقرة بالاعتراف بالعجز الكبير أمام معرفة الإنسان لنفسه وأسباب ذلك فيقول: «صفوة القول، إن التقدم البطئ فى معرفة بنى الإنسان، إذا قورن بالتقدم الرائع فى علوم الطبيعة، والكيمياء يعزى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ، وإلى تعقد الموضوع، وإلى تركيب عقولنا وهذه العقبات أساسية وليس هناك أمل فى تذليلها.. وسيظل التغلب عليها شاقًا يستلزم جهودًامضنية.. إن معرفة أنفسنا لم تصل أبدًا إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة والتجرد، والجمال، التى بلغها علم المادة، إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أخرت تقدم علم الإنسان.. فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعًا»[٢٠]. ثم يمضى هذا العالم الجليل ذو البصيرة النافذة - ليصل فى نهاية كتابه القيم إلى رؤية تكاد تكون إسلامية حينما يقرر أن الفصل الذى حدث بين الروح، والمادة ابتداء من عصر النهضة على أيدى أناس مثل (جاليليو، وديكارت) قد أدى إلى نتائج طيبة بالنسبة للعلم المادى ولكنها وخيمة للإنسان ولا مفر من العودة إلى الجمع بينهما لكى يمكن العثور على الاتجاه الصحيح ومما قاله فى ذلك حرفيًا: « ... ولقد ازدادت التفرقة بين الكم، والنوع اتساعًا عندما أنشأ ديكارت مذهب ثنائية الجسم، والروح.. إذ عزلت المادة نهائيًا عن الروح.. ولقد قادت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان.. ويجب أن ننبذ مذهب ديكارت عن الثنائية، وعندئذ سوف يعاد وضع العقل فى المادة. ولن تعزل الروح وتتميز عن الجسد.. إن هدف العلم يجب أن يكون فائدة الإنسان المادية والروحية.. ولسوف يدرك الاقتصاديون أن بنى الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون، ومن ثم يجب أن تقدم لهم أشياء أخرى غير العمل، والطعام والفراغ، إن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية كما سيدركون أيضًا -أن أسباب الأزمات الاقتصادية، والمالية قد تكون أيضًا أسبابًا أدبية وعقلية.. بيد أن استبدال الروحى بالمادى لن يصحح الخطأ الذى ارتكبته النهضة.. فاستبعاد المادة سوف يكون أكثر إضرارًا بالإنسان من استبعاد العقل.. وإنما سيوجد الخلاص فقط فى التنحى عن جميع هذه المذاهب، وفى القبول التام لمعلومات الملاحظة، وإدراك الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يقل ولا يزيد عن هذه المعلومات»[٢١].

فهذه شهادة من عالم طبيب تجريبى حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه والتى خلاصتها أن هناك للإنسان احتياجات مادية واحتياجات روحية وكليهما يجب الاهتمام به وأن الفصل بين الإثنين هو الذى أدى ويؤدى إلى دمار مستمر للإنسان فى الحضارة الغربية، وإنه لا يجب الإغراق فى النواحى الروحية على حساب المادية أو العكس فكلاهما ضار، فهو يكاد يقول إنما البديل هو

التوازن الإسلامى، وإن كان فى آخر كلامه بدأ يظهر ذلك التيه، والتخبط من مثل ذلك العالم المحترم حينما اعتقد أن الخلاص سوف يوجد فقط فى التنحى عن جميع هذه المذاهب إلى هنا هذا حق - « وفى القبول التام لمعلومات الملاحظة وإدراك الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يقل ولا يزيد عن هذه المعلومات » إن هذه الكلمات الأخيرة له ليست خاطئة فحسب، ولكنها تتناقض مع سابق ما قاله هو نفسه فى بداية كتابه ونقلناه قبل ذلك بالنص فى بداية الفقرات المنقولة عنه والتى تدل على « الجهل المطبق بالإنسان بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة » ويتضح من هذه الفقرات أن هناك جوانب كثيرة مجهولة وستظل مجهولة فى الإنسان بالرغم من كل هذا الكم الهائل من الملاحظة.

ولا ندرى أى مكسب كان يمكن أن يكسبه هذا العالم ويكسبه العلم لو أنه علم الإسلام وتعرف عليه وعلى ما فيه ليحقق بغيته ويجد ضالته.. فإن الله - سبحانه وتعالى - قد أوضح لنا كيف خلق الإنسان منذ البداية، ومم خلق، وكيف تطور خلقه، وما الذى زود به؟ وما هى غاية وجوده؟ وما هى علاقته بما يحيط به من كائنات؟ وما هى احتياجاته؟ وكيف يمكن إشباع هذه الاحتياجات؟... إلى غير ذلك من الأسئلة التى يجيب عنها بوضوح، ويدفعنا فى نفس الوقت لكى نبحث ونلاحظ وندرس فى الأمور الممكنة.. لنزيد من فهمنا وعلمنا.

﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٢١] لكى يسير العلم والملاحظة والدراسة جنباً إلى جنب فى هدى كتاب الله وتوجيهاته لتحقيق أفضل النتائج بأقل الجهد.

ب - نماذج لبعض المداخل الأخرى ونظرتها الجزئية للإنسان:

وسوف يقوم الباحث بالإضافة لما سبق - بتقديم أمثلة موجزة تصور مدى ما تعانيه المذاهب الأخرى من تخبط فى نظرتها الجزئية للإنسان التى أحدثت الكثير من الخلل فى إشباع حاجاته مما انعكس وما زال ينعكس على ما يعانيه الآن فى الغرب من تشتت، وعدم توازن فردى واجتماعى.. بالإضافة إلى « التفريغ الإنسانى » الرهيب الذى يحدث فى حضارة الغرب الآن.

« فلقد حدث فى العصور الأخيرة طمس واضح لشمولية الإنسان ومعالمها الكلية، بناء على دراسته دراسة مجزأة، والنظر إليه من زاوية معينة، وسحب نتائجه على الكل الشمولى »[٢٢].

ويسوق د. محسن عبد الحميد نماذج عدة لهذه النظرة المجزأة أهمها[٢٣]:

(١) النظرة الكنسية

فالنظرة الكنسية عندما نظرت للإنسان من حيث هو كائن روحى كرد فعل عنيف على حيوانية ومادية النظرة الرومانية، أفقدت الإنسان توازنه وحملته ما لا يحتمل وحاولت قتل غرائزه، وتجاهلت واقعه الأرضى تجاهلاً كبيراً. إن التربية الكنسية الروحية هذه وزرعها اللاشعورى المستمر بأن مملكة الإنسان هى فى عالم المثل، والروح، والسماء قد فجرت الإنسان تفجيراً رهيباً بعد كبت

القرون المتطاولة، فالتصق بالأرض وأنشأ مملكته الحضارية الحديثة فوقها، على أسس من المادية البحتة والقيادة الإنسانية «المؤلهة» بمعزل عن مملكة الروح، وقيمها وأخلاقياتها فانجبت للإنسان الفلسفات التغييرية التى جزأته بدورها وأفقدته شموليته الإنسانية»[٢٤].

(٢) وضعية (أوجست كونت)

والوضعية التى نادى بها «أوجست كونت» الفرنسى، عدت الإنسان كائنًا يستطيع أن يشكل قيمه بنفسه، ويحولها إلى دين وضعى، يضبط حركته الاجتماعية، ولا حاجة بعد إلى الأديان والقيم القديمة فى زعمه. ثم ظهر بعد قرن كامل من الصراع والتجربة أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد القيم المجردة من المصالح، لأن حب الإنسان لمصلحته موجهًا من جانبه الحيوانى حال بينه وبين فهم الإنسان من حيث معناه وشموليته، ومنعه من إيجاد تلك القيم المجردة التى تعبر عن المعنى الشامل لإنسانيته[٢٥].

(٣) الماركسية

والماركسية جردت الإنسان من شموليته وجعلته سلوكًا متغيراً فى ضوء تغيير أدوات الإنتاج، مجبراً على ذلك السلوك مسلوب الإرادة، ، فحصرت شموليته الإنسانية فى العامل الاقتصادى، ثم أثبتت التجارب الواقعية والإحصاءات الدقيقة فى الدراسات الحديثة أن سلوك الإنسان لا يمكن أن يفسره عامل واحد. لأن تفسير سلوكه وتطور حياته بعامل واحد يعنى قصمه عن كيانه الإنسانى الشامل وفى ذلك انحرافه وأزماته وشقاؤه[٢٦].

(٤) الداروينية

والداروينية نظرت إلى الإنسان من زاوية حيوانية انطلاقًا من التشابه الظاهرى فى القانون الواحد الذى خلق الله تعالى به الإنسان وسائر الحيوانات. ناسية مساحة الاختلاف والتنافر التى تجدها شمولية شخصية الإنسان لجانبه الحيوانى البحت، وجانبه الإنسانى الفكرى والشعورى، فأثرت وجهة نظرها الاحتمالية تأثيراً كبيراً فى إنكار ثبات الصفات الخلقية، والإنسانية القيمية، وانتهت إلى اعتبار الإنسان حيوانًا اجتماعيًا متطوراً، لا ضوابط لتغييره إلا فى إطار تكوينه الحيوانى[٢٧].

(٥) الفرويدية:

وأما الفرويدية فقد نظرت إلى الإنسان فى ضوء حيوانية الإنسان الداروينية، فانتهت إلى أن الجنس هو أساس حركة الإنسان وسلوكه. فلابد أن يطلق منهج التغيير، فى زعمه، هذا الدافع حتى يأخذ مجراه الطبيعى.

وكان من نتائج الفرويدية تحطيم الأسرة وضوابطها، من خلال الفوضى الجنسية العارمة التى نفذت إلى كل جزئية من جزئيات الحياة الاجتماعية فى الحضارة الحديثة، ومن خلال الانحرافات المتلاحقة التى سببت أمراضًا نفسية وجنسية خطيرة، ومعقدة فى المجتمعات الغربية. وانتقلت جراثيمها بدرجات متفاوتة إلى المجتمعات الأخرى فى العالم كله[٢٨].

(٦) المذهب النفعي:

وأما المذهب النفعي، فقد شارك المذاهب الأخرى فى التفسير الأحادى ونظر إلى الإنسان من خلال غريزته الذاتية المصلحية التى تحقق له أكبر نفع ممكن. فمقياس الحق مرهون عند «جون ديوى» وأرباب هذه النظرية بمدى ما تحققه من مصلحة، وهى غير منضبطة بضوابط القيم الثابتة العادلة عندهم.

ومن هنا فمنهج التغيير النفعى «البراجماتى» انتهى إلى التخلخل الخطير فى الحياة الاجتماعية فى المجتمع خاصة، لأنه رأى الحق فى تحقق المصلحة بمعزل عن القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل المجردين فى تاريخ الفكر الإنسانى..[٢٩].

(٧) الوجودية:

وكانت خاتمة المطاف فى سلسلة النظرات الأحادية المجزئة لكيان الإنسان، النظرة الوجودية «السارترية» التى أنكرت كسابقاتها وجود الإله، لينصب الإنسان نفسه مكانه بدعوى إثبات وجوده، وتحقيق حريته، بعيداً عن أوامر الدين ونواهيه، وتوجيه الفلسفات العقلية وضغط العادات والتقاليد.

وقادت الوجودية جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى حالة يائسة من القلق والضياع والسلبية فى الحياة، والحرية غير المنضبطة، والفوضى الاجتماعية[٣٠].

ويوضح الكاتب بعد ذلك أثر المداخل التغييرية المختلفة التى توجهها هذه الفلسفات فيقول: «ومن هنا فإن المناهج التغييرية فى العالم التى توجهها تلكم الفلسفات المادية البحتة لم تستطع أن تعدل من عرج الحضارة. ولم تقد المجتمع الإنسانى إلى السعادة والتوازن، لأن هذه المناهج لا تنظر نظرة شمولية إلى الإنسان. وحتى لو نظرت فهى إنما تنظر بعين بشرية محضة، لا تفلح قط فى مهمتها. لأن أسرار الحياة الحيوانية للعالم الإنسانى لا يمكن أن تدرك فى عصر واحد وهى من التعمق والتشابك، والتعقيد بحيث لا يدرك أبعادها إلا خالق الكون والإنسان الذى أودع فى الوجود هذه الأسرار، وهو عليم بها وبحركتها وضوابط موازنتها»[٣١].

ثم يخلص بعد هذه الجولة بين المذاهب التغييرية المختلفة إلى تلك الخلاصة المهمة فيقول: «ومن هذا المنطلق الحكيم، فإن المنهج التغييرى الإسلامى هو المنهج الصالح لقيادة حضارتنا الحاضرة. وملء الثغرات التى حدثت فى منظومتنا الحضارية الخاصة. وذلك لسببين:

الأول: أن هذا المنهج، ليس منهجا بشريا، إنما هو من عند الله، خالق الوجود وعالم الأسرار، عنايته تصل كل ذرة من ذرات الوجود بما فيه ومن فيه.

الثانى: أنه منهج قائم على أساس شمولية مترابطة متوازنة، داخليتها مرتبطة بظاهرها ارتباطا وثيقا فى وحدة متناسقة لا تستطيع أن تفصل جزءا عن جزء. وإن أدخلنا القسمة المنطقية بين أجزائه. فإنما نفعل ذلك من باب الفهم والتوضيح.

إذن فمنهج التغيير الإسلامى منهج شامل لتحريك طاقات الإنسان كافة إذ هو لا يقتلها بل يخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل وينظمها ويحركها فى الاتجاهات التى تنسجم مع أصل تكوينها(٣٢).

الوسطية والتوازن فى إشباع الحاجات الإنسانية فى الإسلام

إذن - وكما سبق أن ذكرنا - فإن النظرة للإنسان فى المذهبية الإسلامية تعتبر نظرة شاملة، تعتبره مكونا من جسد وروح، وهى نظرة متوازنة معتدلة حيث تعترف بكل احتياجات الإنسان التى فطر عليها وضرورة العمل على إشباعها بصورة متوازنة، ومشروعة سواءكانت هذه الحاجات مادية تتعلق بالجسم، والغرائز المركبة فيه، أو كانت حاجات روحية تتعلق بالروح التى هى نفخة من الله. ولا يمكن لأحد غير الله أن يضمن هذا الشمول والتوازن سواء فى النظرة، أو الفهم أو فى تحديد كيفية ووسائل الإشباع العملية ، ومن هنا نجد أن معظم - إن لم يكن كل - المذاهب التغييرية الوضعية، أو أهل الديانات الوثنية، أو أهل الديانات السماوية التى تدخل فيها الإنسان بالتعديل والتحريف، قد انحرفت إما ناحية الروح، أو ناحية الجسد بغرائزه، (شكل، ١٠).

فالمذهبية الإسلامية هى ما يمكن أن يعبر عنه بالوسط والاعتدال والفطرة ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾. [البقرة: ١٤٣]. وإنه هو الصراط المستقيم المعتدل وما عداه هو سبل انحرفت عنه ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿ **وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٦]. ولذلك كان من أعظم ما ندعو به الله - سبحانه وتعالى - هذا الدعاء الذى ندعوه به فى كل صلاة نصليها بل فى كل ركعة نؤديها والذى تتضمنه سورة الفاتحة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ٦ : ٧]، فهذا الدعاء العظيم قد تضمن أعظم هداية وهى اتباع الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحميد، الذى هو الوسط ، والاعتدال، والحق، وأوضح أن الناس بحسب معرفة الحق والعمل به ثلاثة أقسام(٣٣):

الأول: عالم بالحق عامل بموجبه:

وهم المنعم عليهم « الذين أنعمت عليهم » وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع، والعمل الصالح وهو المفلح ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[الشمس : ٩ : ١٠].

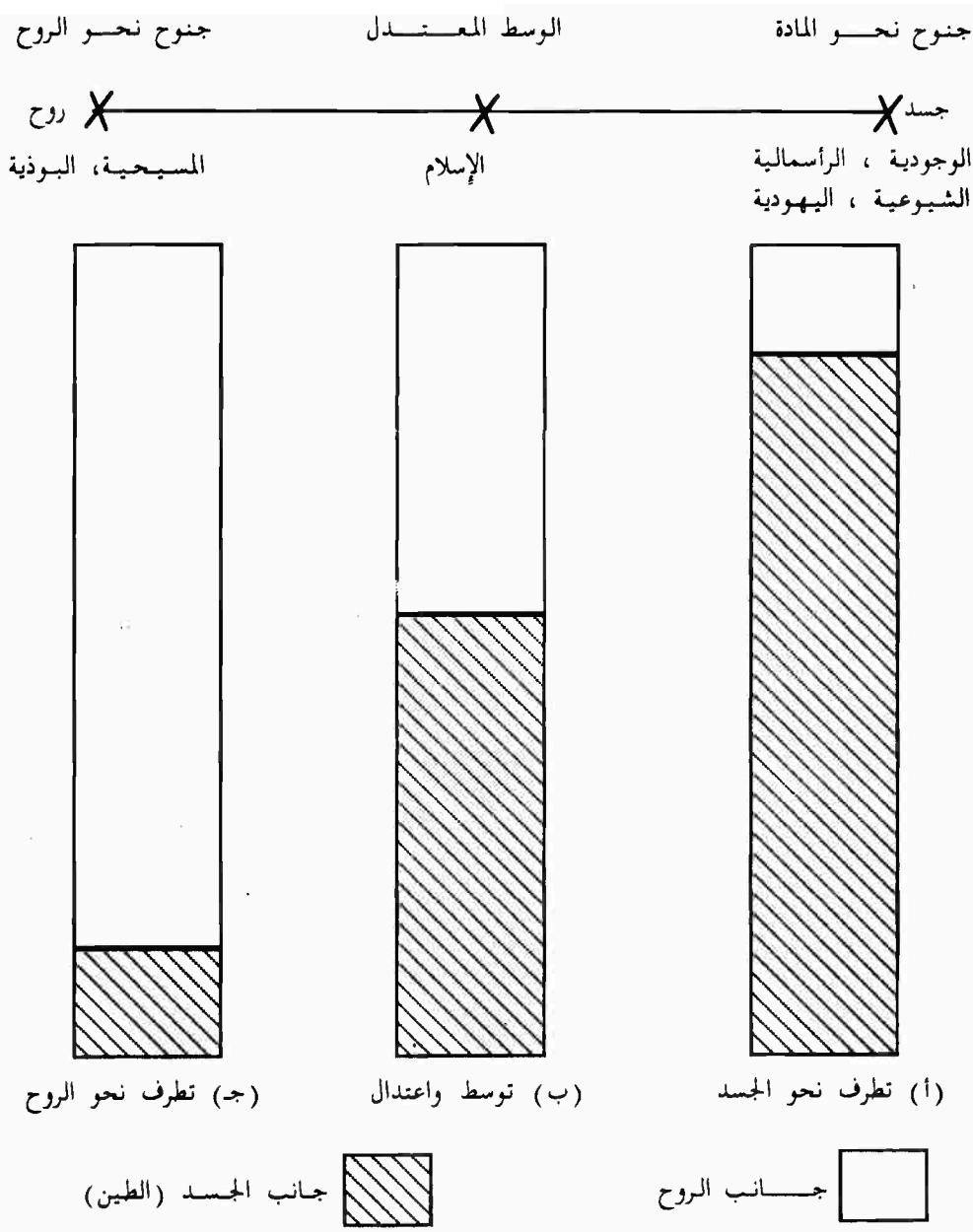

شكل (١٠) العلاقة بين أصل تكوين الإنسان من جسد

وروح ودرجة التوازن فى إشباعهما

والثانى : عالم بالحق مخالفه ، متبع لهواه :

وهم المغضوب عليهم، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، ولكن تارك الحق بعد معرفته

أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به، كما قال تعالى عنهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

والثالث: جاهل بالحق:

وهو الضال وهو أيضا مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال ومغضوب عليه، ولكن الجاهل بالحق أولى باسم الضلال ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وقال ﷺ في الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون».

فهذه الآيات على إيجازها تحدد خلاصة لكل المذهبيات، ومدى اتباعها للحق أو انحرافها عنه، وهو ما قد فصل في آيات كثيرة في مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم، لا يتسع المجال هنا لذكرها جميعا، كقوله - تعالى - عما أحدثه النصارى من تطرف نحو الروح وبعد عن الوسط المعتدل والصراط المستقيم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

أما في المذهبية الإسلامية ذات الوسط المعتدل فإننا نجد كثيرا من الآيات تدعو إلى إشباع الغرائز المختلفة للإنسان والتي تسمى شهوات مما خلق الله - سبحانه وتعالى - في الأرض ولكن بصورة مشروعة وفي ظل عبودية الله التي تلتزم بأمره ونهيه. وتتبع الاعتدال وتبتعد عن الإسراف، أو التقتير، ومن هذه الآيات - على سبيل المثال - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢](٣٤).

وهكذا فإننا نجد اعترافا صريحا بكل غرائز وشهوات الإنسان التي فطر عليها وعدم الاعتراض على إشباعها وفي نفس الوقت التنبيه على أنها ليست كل شيء وإنما هي جزء من كل وهي مرحلة من مراحل الحياة الممتدة إلى اليوم الآخر مساحتها الأرض ومدتها الحياة الدنيا، ومن ثم يجب أن يكون هناك تقوى لله في إشباعها، دون أن ننسى جانب الروح الذي يجب أن نغذيه بالإيمان والتقوى والأخلاق الفاضلة، فالمسلم الحق لا يغرق في إشباع شهواته ورغباته فقط دون إشباع الجانب الروحي، ولا يغرق في إشباع الجانب الروحي ويهمل الجانب المادي والغرائز المفطورة فيه بل هو دائما في حالة موازنة بينهما، ليعيش في أمن وسلام، وهذا ما يجب أن يكون واضحا ونصب أعين القائمين بالتغيير، وذلك بمراعاة أن الإنسان كل متكامل يعامل معاملة شاملة متوازنة في إشباع كل من جانبيه الروحي والمادي لكي يمكن أن نحصل منه على أقصى كفاءة وفعالية في

تفجير طاقاته واستخدام مواهبه لكى يحقق الفلاح، وأن أى خلل، أو انحراف عن ذلك التوازن، والاعتدال يعتبر وضعا شاذا وعلى القائمين بالتغيير العمل لإعادة الإنسان دائما إلى توازنه و المحافظة على هذا الوضع. وهذه مهمة الإسلام وكما يقول د. رشدى فكار: «إن الإسلام لن يتقدم فى القرن الواحد والعشرين بالمزيد من التقدم (التكنولوجى) والتقنية الحديثة - بالرغم من أهميتها وضرورتها - ولكن سيكون أساس تقدمه هو حاجة البشرية إلى ما يقدمه لإعادة الإنسانية إلى الإنسان، وتحقيق التوازن المفقود بين حاجات الإنسان المادية والروحية، فالتقدم «التكنولوجى» رغم تزايده وتسارعه إلا أنه كان ولا يزال على حساب الجانب الإنسانى فى الإنسان، وكما قال لى أحد علماء الغرب فى فرنسا: (لقد تمكنا من برمجة كل شىء فى حياة الإنسان إلا الانتحار)»[٣٥].

فالانتحار الذى ينتشر فى أكثر البلاد تقدما وحضارة وإشباعا لكل ما يشتهيه الإنسان من الناحية المادية، لهو خير دليل على ذلك الفقر الروحى، والنفسى الشديد الذى يعانى منه لدرجة تدفعه إلى أن يقضى على أغلى شىء فى الوجود يحيا من أجله، وهو نفسه، فما الذى ينقصه ليفعل ذلك وقد أطلق له كل ما يحتاج إليه من شهوة الجنس، والطعام والشراب والملبس وغير ذلك، ليس إلا أنه قد حبس تلك الروح وجعلها تتململ، وحصر نفسه فى جانب ضيق جدا، وابتعد بنفسه وروحه عن ذلك المدد الواسع والهائل الذى لا ينقطع وهو علاقته بخالقه وعبادته له وإذعانه لأوامره ونواهيه. فلا تكون النتيجة إلا: إما الانتحار أو الإصابة بأحد الأمراض التى يطلقون عليها نفسية أو عقلية، وما أكثر المصابين بها من أبناء تلك الحضارة المادية[٣٦].

ونختم حديثنا بتلك الآية الشاملة الجامعة المعجزة فى إيجازها لما تتضمنه من خلاصة المذهبية الإسلامية كاملة فى نظرتها التوازنية، والشاملة للإنسان فى جانبه، المادى والروحى ليعمل على إشباعهما معا بتوازن ودون إفراط أوتفريط فى أحدهما أو كليهما، حيث يقول المولى - عز وجل - على لسان قوم قارون ينصحونه ويوجهونه إلى ذلك المنهج الحق وليبتعد عن الضلال والفساد والغرور بكنوزه المادية رغم كثرتها ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧].

فهذا هو التوازن، والشمول، والاعتدال، والوسط الإسلامى حيث يتضح من الآية:

١- أن ابتغاء الدار الآخرة فى كل ما آتاه الله للإنسان من نعم أيا كانت هو إشباع للجانب الروحى الممتد بأقصى وسائل الإشباع الممكنة، فالإيمان بهذا اليوم الآخر وبمالك هذا اليوم - الله جل جلاله - والعمل لهذا اليوم من عبادة وتقوى وإنفاق فى سبيله والتزام بما أمر وبما نهى والقيام بواجبات الخلافة فى الأرض التى خلق من أجلها، إن كل ذلك مما يحقق الإشباع لجانب الروح فى الإنسان.

٢- ألا ينسى الإنسان أن له نصيبا فى هذه الحياة الدنيا حيث خلق فيها مزودا بشهوات، وغرائز

وطاقات وحاجات مادية وروحية فيجب ألا يهمل إشباعها هى الأخرى ولا ينسى نصيبه منها.

٣- أن على الإنسان أن يراعى فى كل ذلك جانب الإحسان، وهو غاية الإتقان فى جميع ما يقوم به ويؤديه من أعمال سواء كانت فى عبادة الله، أو عمارة الأرض، فى مسجد، أو فى مصنع، فى البيت، أو فى خارجه، لأنه إنما يراعى ويراقب ربه ويعمل العمل من أجله، وربه لا يغفل ولاينام، ولكنه حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يسمع ويرى، وتعرض عليه جميع الأعمال، ولذلك فإن مبدأ الإحسان هذا بتلك الروح، أساس عظيم من أسس الفلاح التى يجب على القائمين بالتغيير أن يستفيدوا منها، وينموها فى نفوس الناس سواء كانوا طلبة فى مدارس، أو جامعات، عاملينَ فى مصانع، أو وزارات، أو مؤسسات، أو منظمات مختلفة، ولماذا لانحسن ونتعود على الإحسان والله أحسن إلينا فى كل شىء؟ فكيف يمكن أن يكون الأداء الفردى والتنظيمى الذى لا يعمل لمجرد أن هناك من يراقبه من البشر ولكنه يعمل كأنه يرى الله فإن لم يكن يرى الله فإن الله يراه.

٤- ثم لننظر أيضا إلى ذلك المبدأ العظيم الآخر الذى تتضمنه الآية، وهو عدم إرادة الفساد فى الأرض، أو إتيانه لأن الله - سبحانه وتعالى - «لا يحب المفسدين» وكيف يحب الله - سبحانه وتعالى -المفسدين؟ وكأنى أفهم أن من هذا الفساد التطرف، والانحراف عن ذلك الوسط المعتدل السابق تحديده فى تلك الآية، ولذلك لما رفض قارون هذه النصيحة الغالية، واستمر على تكبره، وانحرافه وجهله كانت نتيجة ذلك ونهايته هى الخسران المبين فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٣].

خلاصة ونتائج

تم فى هذا الفصل محاولة تحديد مفهوم، وطبيعة النفس باعتبارها أساس ومدخل التغيير التنظيمى فى الإسلام، ولقد تم التعرض لذلك من خلال تحديد جوهر ومفهوم النفس فى الإسلام، ومكونات الإنسان، وكيف خلق، والغاية من خلقه، وعلاقاته بما يحيط به من سائر الكائنات الأخرى، وحاجاته الفطرية وكيفية إشباعها فى الإسلام والمداخل الأخرى.

ومن أهم النتائج التى توصل إليها الباحث فى هذا الفصل ما يأتى:

١- أن مفهوم النفس الذى يرد فى هذا البحث يتضمن الإنسان باعتباره كلا مركبا من جسم مدرك بالبصر «الطين»، وروح مدركة بالبصيرة.

٢- أن التغيير يكون لما بالنفس وليس تغيير النفس، بمعنى تغيير فطرتها.

٣- أن الإنسان منذ أن خلق ، خلق لغاية تتلخص فى تحقيق العبودية الكاملة لله، وأنه قد زود بكل الوسائل التى تمكنه من تحقيق هذه الغاية منذ أن خلق.

٤- أن الإنسان ليس كائنا معزولا عن بقية المخلوقات فى الكون، ولكنه يمثل نظاما مفتوحا متكاملا يعيش فى نظام كونى أكبر فى ظل علاقة تفاعلية حددها له الله - سبحانه وتعالى - كما يصورها شكل (٩).

٥- أن الإسلام ينظر للإنسان المتوازن باعتباره روحا وجسدا، وأن له حاجات جسدية وأخرى روحية ويجب تحقيق إشباع متوازن لكليهما، على عكس سائر المذاهب الأخرى التى غالبا ما تتطرف نحو أحد الجانبين على حساب الآخر.

هوامش

١- انظر على سبيل المثال: الراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ). **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق ودراسة د. أبو اليزيد العجمى، (القاهرة: الوفاء: ١٩٨٧)، ص ٧٥ : ٧٦

٢- جودت سعيد، **حتى يغيروا ما بأنفسهم بحث فى سنن تغيير النفس والمجتمع**، (دمشق: المؤلف، ١٩٧٧)، ط ٣، ص ٥٢

٣- الراغب الأصفهانى، **مرجع سبق ذكره**، ص ٩١

٤- جودت سعيد، **مرجع سبق ذكره**، ص ٥٨

٥- من الآيات الدالة على أن النفس يقصد بها الإنسان كله ما يأتى:

﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦] ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

٦- ذكر الراغب الأصفهانى تعريفا قريبا من ذلك حيث قال:

«الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر، ونفس مدركة بالبصيرة» فهو هنا جعل النفس جزءاً من الإنسان وعنى بها الروح حيث قال بعد ذلك بقليل: «فالإشارة بالروح إلى النفس، وإضافته تعالى الروح إليه تشريفا لها». والباحث يميل إلى ما حددته آيات القران السابقة من كون النفس يقصد بها الإنسان ككل والذى هو مركب من جسد وروح كما اخترت التعريف المذكور للإنسان، وهذا ما أيده الأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمى محقق الكتاب انظر، الراغب الأصفهانى، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٥-٧٦ وهامشيهما و كذلك: ابن القيم، **مدارج السالكين**، (القاهرة: دار التراث العربى، ١٩٨٢)، ص٥ :٦، بالإضافة إلى الآيات المذكورة فى هامش رقم (٥) مباشرة.

٧- د. محسن عبدالحميد، **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى**، (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، كتاب الأمة، الطبعة الثانية)، (١٦، ١٤٠٤هـ)، ص ٧٩ : ٨٠

٨- سوف يتم تناول هذه النقطة بالتفصيل فى موضع آخر من هذا الفصل.

٩- جودت سعيد، **مرجع سابق**، ص٥٨

١٠ - ولعل ما سبق ان أشرنا إليه من أقوال د. الكسيس كاريل فى كتابه **الإنسان ذلك المجهول** خير دليل على ذلك.

فصل ٥

١١- للمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: الحافظ عماد الدين، أبى الفداء إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، (حلب: مكتبة التراث الإسلامى ١٩٨٠)، ١ / ٧٢: ٧٤

١٢ - (زجا) الشيء زجوا: تيسر واستقام، **المعجم الوسيط**، ١ / ٤٠٤

١٣- الراغب الأصفهانى، مرجع سبق ذكره، ٩٠: ٩١

١٤- **مرجع سبق ذكره** مباشرة، ص ٩١ : ٩٢

١٥- **مرجع سبق ذكره** مباشرة ، هامش ص ٩٢

١٦- سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧)، ط، ٢ ص ٣٧٣

١٧- وهناك كثير من الآيات حول هذا الموضوع منها سورة (الحج: ١٨) (الإسراء: ٤٤)، (مريم: ٩٣)

١٨- للمزيد من التفصيل حول الموضوع يمكن الرجوع إلى:

- أبى الحسن الحسينى الندوى **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، (الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

- سيد قطب، **الإسلام ومشكلات الحضارة**، (ليبيا ، طرابلس: دار مكتبة النور، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م).

- ميرزا محمد حسين، **الإسلام وتوازن المجتمع**، (القاهرة: سلسلة الثقافة الإسلامية (٣٥) ذو القعدة ١٣٨١هـ - مايو ١٩٦٢م)، ترجمة فتحى عثمان.

١٩ - الكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب شفيق أسعد فريد (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٣) ص ١٦ : ١٩

٢٠ - **المرجع السابق**، ص ٢١ : ٢٤

٢١ - الكسيس كاريل، **مرجع سابق**، ص ٣١٦ : ٣١٩ من كتابه.

٢٢- د. محسن عبدالحميد، **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى**، **مرجع سابق**، ص ٧٢

٢٣- تم الرجوع فى هذه النماذج بالكامل إلى: د. محسن عبدالحميد، **المرجع السابق**، ص ٧١ : ٧٦

٢٤- د. محسن عبدالحميد، **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى**، **مرجع سابق**، ص ٧٢

٢٥- **المرجع السابق**، ص ٧٢ : ٧٣

٢٦- **المرجع السابق**، ص ٧٣

٢٧ - **المرجع السابق**، ص ٧٣

٢٨- د. محسن عبدالحميد، **مرجع سابق**، ص ٧٣ : ٧٤

٢٩- **المرجع السابق**، ص ٧٤

٣٠- **المرجع السابق**، ص ٧٤ : ٧٥

٣١ - **المرجع السابق**، ص ٧٥

٣٢ - د. محسن عبدالحميد، **مرجع سابق**، ص ٧٥ : ٧٦

٣٣- ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، (القاهرة : دار التراث العربى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م)؛ ١ / ١١، ويمكن أيضا الرجوع إلى **تفسير ابن كثير**، مرجع سبق ذكره، جزء ١ / ٢٦ : ٣٢

٣٤ - يمكن أيضا الرجوع إلى: سورة (الأعراف، ٢٦، ٣١: ٣٤)، (آل عمران، ١٤: ١٧)، (البقرة: ١٩٧).

٣٥- من محاضرة ألقاها د. رشدى فكار، فى نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة. الجمعة ١٩٨٧/١٠/٢٠

٣٦ - سبق الإشارة إلى ذلك فى موضع سابق، وللمزيد يمكن الرجوع إلى:

- ألكسيس كاريل، **مرجع سبق ذكره**.

- محسن عبدالحميد، **مرجع سبق ذكره**.

- سيد قطب، **الإسلام ومشكلات الحضارة**، **مرجع سبق ذكره**، وغيرهم.

الفصل الثامن

طبيعة النفس وحالاتها فى الإسلام والمداخل الأخرى

تمهيد:

يتناول الباحث فى هذا الفصل - بإذن الله تعالى - تحديدا لطبيعة النفس من حيث الخير والشر، وما فطرت عليه والحالات المختلفة التى يمكن أن تتمثلها وأثر ذلك على محاولة تغييرها، أو التعامل معها وإدارتها.

ويهدف الباحث من وراء ذلك إلى إلقاء المزيد من التوضيح لطبيعة النفس فى المدخل الإسلامى وموقفها من حيث الفطرة تجاه الخير والشر، لتحديد ما إذا كانت فطرة النفس خيرا محضا، أو شرا محضا، أو هى خليط بين الاثنين، ولتحديد الحالات التى يمكن أن تكون عليها أى نفس فى أى لحظة من اللحظات، والحالة التى تعتبر هدفا تغييريا يجب الوصول إليه.

ومن خلال ما سبق يمكن أن نتوصل إلى تحديد الأسلوب الواجب اتباعه للتعامل مع الأنفس، تغييرا، أو إدارة.

وسوف يتم الإشارة إلى نظرة المداخل الأخرى للنفس وانعكاس ذلك على أسلوب التعامل معها، ثم نعرض بالتفصيل للمدخل الإسلامى ونظرته المتوازنة، والوسطية لطبيعة النفس، وتطبيقات من القرآن الكريم.

نظرة المداخل الأخرى للإنسان وأثرها على الأسلوب الإدارى المستخدم

نظرا لأن السلوك الإنسانى إنما هو غالبا محصلة لما يعتمل فى النفس من أفكار ومعتقدات - حتى إن كانت وهمية - فإن معظم من يديرون الناس ويتعاملون معهم على أى مستوى من المستويات الإدارية وفى أى منظمة من المنظمات، إنما يتحدد سلوكهم الإدارى بناء على تلك المعتقدات حول الإنسان الذى يتعاملون معه.

ولقد لخص أحد علماء الإدارة البارزين هو «دوجلاس مجروجر» الأنماط الإدارية التى تتحدد بناء على فهم الإنسان فى نظريتين هما[1]:

(أ) نظرية (X):

وتفترض أن الناس يكرهون العمل، وأنهم يجب أن يعاقبوا فهم سيئون بطبعهم، وأنهم يهربون من تحمل المسئولية ويجب أن يدفعوا ويوجهوا نحو تحقيق الأهداف التنظيمية.

(ب) نظرية (Y):

وأما هذه النظرية فإنهاتركز على افتراض أن الشخص المتوسط يهتم بعمله، ولديه رغبة ليدار ذاتيا، ويبحث عن المسئولية، وطاقته تكون خلاقة فى حل مشاكل العمل أى أنه خير بطبعه.

وبالرغم من أنهما يمثلان مدخلين فى الإدارة ظلا سائدين على مدى ما يقرب من ثلاثين عاما، أو يزيد وهما المدخل التقليدى، أو المدرسة الكلاسيكية والمدخل الإنسانى إلا أن (مجروجر) افترض أن النظرية الأخيرة هى الأفضل فى تحقيق فعالية المنظمة، وهذا بالطبع ليس صحيحا، بل إنه نفسه لم ينكر أن هناك بعض المواقف التى يمكن فيها لنظرية (X) أن تعمل بكفاءة، وأخرى لا تعمل فيها بنفس الكفاءة وكذلك نفس الكلام ينطبق على نظرية (Y).

وهذا هو ما دفع بعض الباحثين ليتساءلوا: لماذا يحدث ذلك وكيف يمكن للمديرين أن يحلوا هذا الاضطراب؟

ثم حاولوا التوصل إلى تفسير لذلك بتحديد نظرية جديدة أسموها النظرية الموقفية (Contingency Theory)، أو ما وراء نظرية (Y). (Beyond Theory Y) حيث خرجوا من كل ذلك بأنه ليس هناك نظرية بعينها تصلح للتعامل مع جميع الناس فى جميع المنظمات فى كل المواقف بنفس الكفاءة، وإنما الأمر يتوقف على طبيعة الموقف نفسه.

ففى موقف معين تكون نظرية معينة مناسبة، وفعالة فى منظمة معينة وفى موقف آخر لا تكون هذه النظرية فعالة لنفس المنظمة(٢).

فأين الصواب والحق فى هذا الأمر والذى لا يمكن أن يعتريه شك، أو قصور؟ وما هى النظرة الصحيحة التى يجب أن ننظر بها إلى الإنسان؟ وهل هناك حسم لهذه القضية من قبل منهج الله - عز وجل - الذى خلق هذا الإنسان؟ هذا ما سنتناوله فيما يلى.

وسطية وتوازن المدخل الإسلامى فى نظرته للنفس البشرية

إن المدخل الإسلامى ينظر إلى النفس لا باعتبارها شرا محضا، ولا باعتبارها خيرا محضا، وإنما باعتبارها قد جبلت منذ الخليقة على الخير والشر، وكما يقول أبو حامد الغزالى: «فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم و التوبة أو نار جنهم.. بل المتجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين. والمتجرد للشر دون التلاقى سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين.. فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك وإما إلى آدم أو إلى شيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان والمصر على الطغيان مسجل

على نفسه بنسب الشيطان . فأما تصحيح النسب للملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان[٣] .. وانظر شكل (١١) .

ويمكن لنا أن نصور هذا الذى ذهب إليه الإمام الغزالى فى نظرته إلى تقسيم الخلائق بين الخير والشر فى الشكل التوضيحى رقم (١١) ومن النصوص القرآنية التى تؤكد على التركيب الفطرى للإنسان وتهيئته منذ البداية للخير، والشر النصوص الآتية:

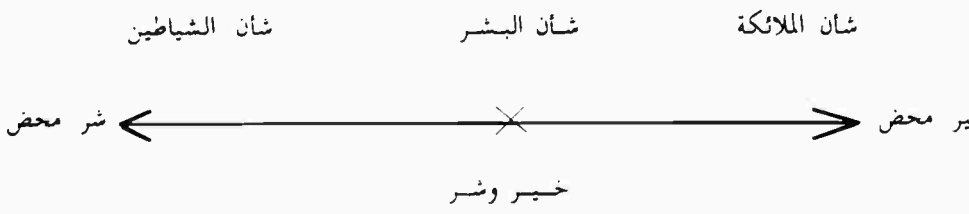

شكل (١١)

تقسيم الخلائق بحسب ما فطرت عليه من الخير والشر

قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٧ : ١٠] وقال تعالى أيضا: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان : ٢ :٣] وقال أيضا: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد : ٤ : ١٠]، قال ابن كثير: «وهديناه النجدين: أى الخير والشر»، وورد فى الحديث «**هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم من الخير**»[٤].

ومن هذه النصوص الثلاثة يتضح تماما أن الإنسان قد فطر منذ أن خلق على الخير، والشر، وبين له كلا الطريقين، وذلك بصورة تكاد تكون حيادية، وأن الميل إلى أحد هذين الطريقين إنما يكون بعمل منه فهو إما أن يزكى نفسه فيهذبها ويطهرها - بطاعة الله - من الرذائل، فيفلح، وإما أن يسايرها ويخذلها عن الهدى ويرتكب المعاصى ويفجر فيجنى الخيبة والخسران، وهنا يتضح دور الإنسان كل الوضوح فى القيام بتغيير هذه النفس وعلى أى شىء يغيرها وكيف يغيرها؟ وذلك مانجده فى هذا الإيجاز المعجز والدقيق، انظر شكل(١٠) وكما يذكر ابن كثير فى تفسيره:

«**ونفس وما سواها**» أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ**

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال رسول الله ﷺ، «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كماتولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**» (البخارى ومسلم)[٥]، وقوله: «**فألهمها فجورها وتقواها**» أى فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أى بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها.. وقال ابن عباس بين لها الخير والشر وكذا قال غير واحد، وقال سعيد بن جبير ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد جعل فيها فجورها وتقواها[٦].

وقوله: «**نبتليه**» أى نختبره «**فجعلناه سميعا بصيرا**» أى جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله – جل وعلا –: «**إنا هديناه السبيل**» أى بيناه ووضحناه وبصرناه كقوله –جل وعلا –: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وكقوله: «**وهديناه النجدين**» أى بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا ما ذهب إليه الجمهور[٧].

مما سبق يتضح أن الخير والشر مفطور فى الإنسان منذ أن خلق وقد أوضح الله – تعالى – له هذين الطريقين، طريق الخير، وطريق الشر، وجعل له وازعا من نفسه يدعوه إلى الخير وينهاه عن الشر، ووازعا من خارج نفسه يدعوه إلى الشر، وهو الشيطان، ووازعا من خارجها أيضا يدعوه إلى الخير وهو الملك، وكما يقول ابن القيم: «ففى الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن للملك لمة بقلب ابن آدم وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد**» ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة: ٢٦٨][٨].

ومما يدل أيضا على وجود واعظ الله – عز وجل – فى قلوب المؤمنين «ما جاء فى جامع الترمذى ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبى (ﷺ) قال: «**إن الله تعالى ضرب مثلا: صراطا مستقيما. وعلى كنفتى الصراط سوران، لهما أبواب متفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر، والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن**» فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة[٩].

ويمكن لنا أن نتصور هذه الأوجه الثلاثة المتصارعة فى (شكل ١٢) وربطها مع جانبى الخير والشر، وكذلك ربطها مع الحالات المختلفة التى يمكن أن تكون عليها النفس فى صراعها وشدها وجذبها بين جانبى الخير والشر (النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة).

مما سبق يتضح أن هناك عاملين فطريين يتجاذبان النفس، أى نفس، فى أى زمان وفى أى مكان، هما الخير والشر.. أو الفجور والتقوى وأن الإنسان لم يترك دون أن يوضح له ذلك سواء عن طريق الوازع النفسى الداخلى فيه، أو عن طريق الرسول الملكى، أو عن طريق غيره من صالح المؤمنين، أو عن طريق رسل الله وأنبيائه البشريين الذين يبعثهم لعباده ليوضحوا ويبينوا لهم طريق الخير وطريق الشر، وكيف يمكن أن يصلوا إلى أعلى مراتب التقوى والفلاح وذلك عن طريق تزكية النفس وتهذيبها وتطهيرها، وكيف يمكن أن يبتعدوا عن الفجور، والعصيان، والخسران وذلك عن طريق الابتعاد عن دس النفس واتباع أهوائها، أو اتباع وسوسة الشيطان، فالإنسان خلق فى وضع حيادى متوازن وترك له حرية الاختيار والعمل ليتحمل مسئولية ذلك الاختيار وذلك العمل بعد التبيين والهداية من الله، ومن ثم ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥].

وبالرغم من أن الشيطان قد خلق ليكون عاملا مساعدا وداعيا إلى الشر والفجور والفتنة للإنسان، إلا أن هناك تأكيدا جازما ومتكررا على أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وتزكوا، وأخلصوا، وإنما سلطانه على الذين يتولونه ويتبعونه من الغاوين(١٠).

فما هى - إذن - الحالات التى يمكن أن تكون عليها النفس بين الفجور والتقوى؟

حالات النفس

إن النفس كالإناء لابد وأن يكون مملوءا فى كل لحظة، فهى تملأ إما بالفجور وإما بالتقوى، وذلك بدرجات مختلفة، وكلما زادت مساحة أحدهما كان ذلك على حساب الآخر، (شكل ١٢) والذى يزيد من مساحة التقوى والإيمان هو ما يقوم به الإنسان من عمليات التزكية المختلفة، وما يزيد من مساحة الفجور هو ما يتبعه من دس ومجاراة لهوى نفسه. ولا يمكن للنفس أى نفس أن تكون على حالة ووضع واحد ثابت لمدة طويلة، ولكنها تكون فى حالة حركة متغيرة مستمرة بين الفجور والتقوى.

والنفس يمكن أن تكون فى هذه الحركة بين ثلاث حالات (شكل ١٢) وهى:

(أ) حالة النفس الأمارة بالسوء

وهى تلك التى تمثل جانب الفجور، والهوى، واتباع الشهوات، وهى التى تأمر صاحبها بكل رذيلة ونقيصة فإن أطاعها فقد خاب وخسر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠] وهى التى أشار الله - سبحانه وتعالى - إليها فى قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] وهذه النفس يجب على كل إنسان أن يحذرها ويعمل على تهذيبها، وتزكيتها، ومخالفتها.

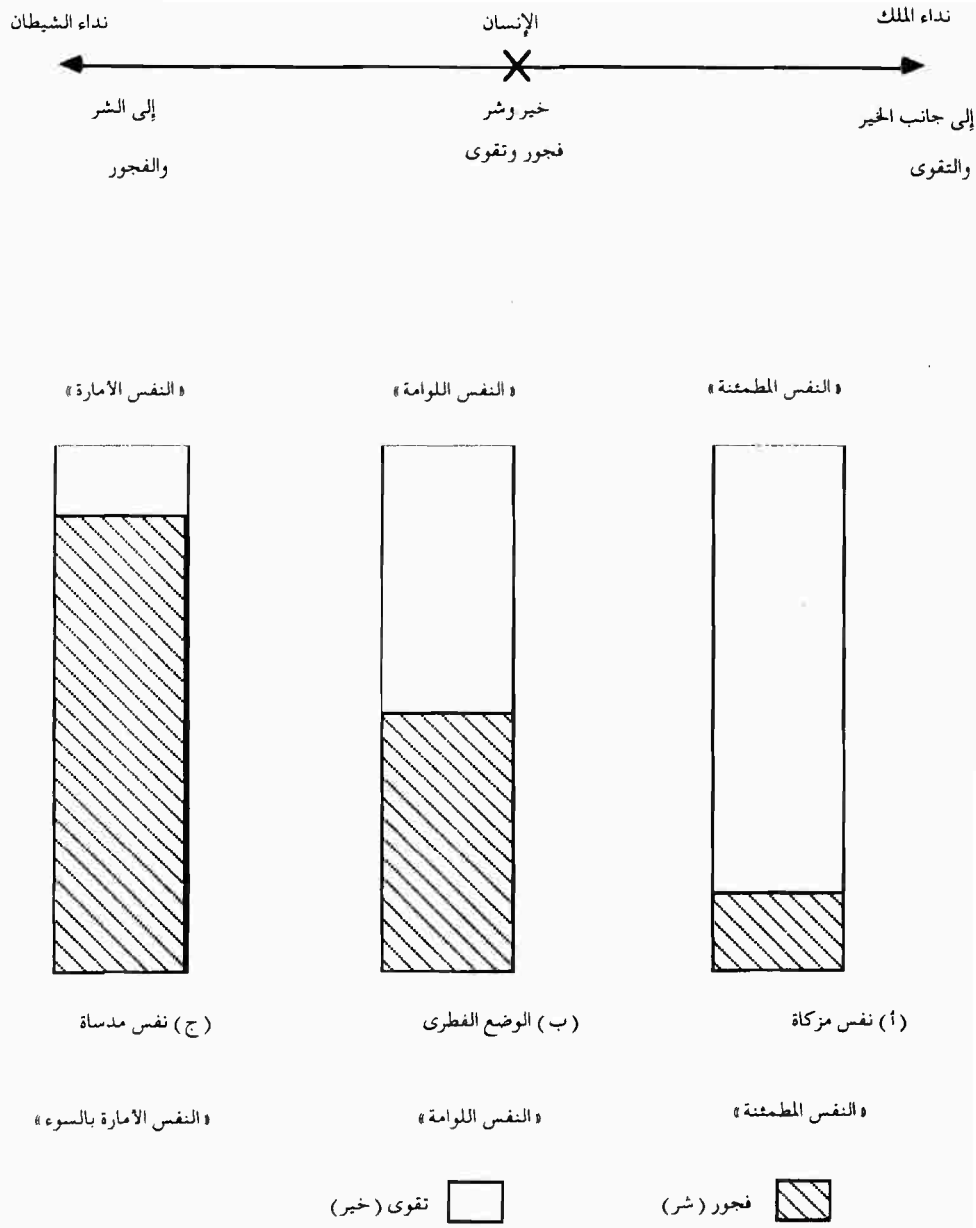

شكل (١٢) نموذج تصورى للعلاقة بين الفجور، والتقوى، وعلاقته بحالات النفس

(ب) حالة النفس اللوامة

وهى تلك التى تمثل الوازع، أو الضمير الحى، واليقظ فى الإنسان. والذى يتصدى بحزم وحسم لما تأمر به النفس الأمارة بالسوء. حيث تلومها على ما يبدر منها من منكر وما تأتى به من شر. وعلى قدر قوة هذه النفس اللوامة ويقظتها وتدعيمها بالإيمان والعمل الصالح واتباع هدى الله -سبحانه وتعالى - والاستجابة لأمره ونهيه على قدر ما تكون قادرة على قهر وكبت عوامل الشر، والسوء فى النفس الأمارة، وعلى قدر ضعفها وبعدها عن ربها على قدر ما تقوى نوازع الشر والسوء فى النفس الأمارة.

فهذه النفس اللوامة هى التى تحاول باستمرار أن تزيد من اتجاه النفس إلى الخير، والهدف النهائى الذى يمكن أن تصل إليه هو أن تصل إلى حالة الأمن، والسلام، والاطمئنان الكامل على شرع الله واتباع هداه، والذى يمثل الحالة الثالثة. ولقد أشير، إلى هذه النفس فى القرآن بقوله تعالى: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢].

(جـ) حالة النفس المطمئنة:

وهى تلك التى تمثل قمة ما يمكن أن تصل إليه النفس فى تقلباتها من إيمان وتقوى وطاعة لله -سبحانه وتعالى- وذلك عندما تنتصر النفس اللوامة وتردع كوامن الشر لدى النفس الأمارة بالسوء، ثم تستقر على اتباع رضوان الله والقيام بحقوق عبوديته كاملة باتباع أمره، ونهيه فى كل شىء ليصل إلى الفلاح المذكور فى قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩].

فإذا وصل المرء إلى هذه الحالة ونجح فى الاستمرار عليها (لأن هذا أمر صعب ويحتاج إلى مجاهدة مستمرة) فإنه يكون قد حقق الفوز فى الدنيا والآخرة، ولذلك فإن هذه الحالة هى التى تمثل الهدف الذى يمكن أن تصل إليه عملية التزكية للنفس. ولقد أشار الله -سبحانه وتعالى - إليها فى قوله: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧ : ٣٠].

وعلى ذلك فإن من المبادئ المهمة التى يجب مراعاتها:

- أن النفس فى حالة تقلب مستمر، وقلما تسكن إلى حالة واحدة بنفس الدرجة، وهى فى تقلبها أشد من القدر فى غليانه.

- ومن ثم فهى تحتاج إلى مجاهدة مستمرة لا تنقطع أبداً بهدف الوصول إلى حالة النفس المطمئنة والابتعاد تمامًا عن حالة النفس الأمارة بالسوء. وذلك من خلال أعمال التزكية، والتطهر المستمرة. مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢] فدلت هذه الآية على أن عملية التغيير للنفس تعتبر

(ديناميكية) ومستمرة، حيث إن الأمر جاء للذين آمنوا بالتقوى، حق التقوى، وليس معنى ذلك خلوهم منها، وإنما إرشادهم على طلبها والمحافظة عليها والتحقق بالمزيد منها، ثم الأمر ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقتضى ضرورة الحرص واليقظة المستمرة للوصول بالنفس دائمًا إلى أعلى مراتب الإيمان والتقوى والاستمرار على ذلك حتى ملاقاة وجه الله - سبحانه وتعالى - ونظرا لأنه ليس هناك من يدرى متى يلقى وجه ربه ولا أين ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فأصبح لزامًا على المرء أن يكون دائم الحرص على الوصول إلى الوضع التغييرى النفسى الأمثل، والاستمرار عليه حتى الوفاة. كما أن ذلك هدف يجب أن يكون فى ذهن القائمين بالتغيير ولا يغيب عنهم أبدًا.

معنى الفطرة وإمكانية تغييرها

لقد تكرر استخدام لفظ الفطرة فى أكثر من موضع مما سبق وسوف يتكرر هذا اللفظ كثيرًا، فما هو المقصود بمعنى الفطرة؟ وما الذى نعنيه بقولنا أن الإسلام دين الفطرة؟ وما هو انعكاس ذلك على الجانب المتعلق بالتغيير التنظيمى؟ فهل يمكن مثلا تغيير الوضع الفطرى للإنسان؟ وإذا لم يكن فما الذى يمكن عمله تجاه ذلك لإحداث عملية التغيير؟

(أ) معنى الفطرة:

« الفطرة: الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه، والفطرة: أيضًا: الطبيعة السليمة التى لم تشب بعيب، وفى التنزيل العزيز ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] والفطرة السليمة (فى إصطلاح الفلاسفة): استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل.

الفطرية: القول بأن الأفكار والمبادئ جبلية وموجودة فى النفس قبل التجربة والتلقين »(١١).

وفى معنى الفطرة أيضًا ذكر أحد العلماء أن:

« الفطرة ما فطر، أى خلق عليه الإنسان ظاهرًا أو باطنا، أى جسدًا، أو عقلاً، فسير الإنسان على رجليه فطرة جسدية، ومحاولة مشيه على اليدين خلاف الفطرة... واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج الشيء من غير سببه، المسمى هذا الاستنتاج فى علم الجدل بفساد الوضع، خلاف الفطرة العقلية. والجزم بأن ما نشاهده من الأشياء هو حقائق ثابتة فى نفس الأمر فطرة عقلية...

وذهب المحققون من المفسرين، الزمخشرى وابن عطية والبغوى: أن الفطرة مراد بها مجموع شريعة الإسلام.

قال ابن عطية: « والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الإنسان التى هى معدة ومهيأة لأن يميز بها الله - سبحانه وتعالى - ويستدل بها على ربه ويعرف

شرائعه». وقال صاحب الكشاف: «والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام» وأرى -مازال الكلام لابن عاشور - هذا التفسير هو الذى يتعين التعويل عليه»[١٢] وهذا الكلام وما سبقه كله فى مجموعه يزيد معنى الفطرة وضوحًا، ويتكامل ولا يتناقض.

(ب) معنى أن الإسلام دين الفطرة:

ذهب البعض - وهو الأقرب إلى الصواب - بأن مراد الله بقوله: «**فأقم وجهك للدين**» هو دين الإسلام بمجموعه فى اعتقاده وتشريعاته وأن هذا الدين هو الفطرة.. فوصف الإسلام بالفطرة لا يقصد به أنه الفطرة الظاهرية الجسدية لأن الإسلام عقائد وتشريعات وكلها مدركة بالعقل، وإنما المقصود أنه الفطرة الباطنية العقلية. وفى إضافة الفطرة إلى اسم الله - تعالى - فى قوله «**فطرة الله**» معنى من التشريف يؤذن بأنها فطرة سامية كالإضافة فى قوله تعالى: «**صبغة الله**»..... ويتعين أن المراد بالفطرة الموصوف بها الدين هى الفطرة الإنسانية، أى الانفعالات الحاصلة لنفوس البشر فى حالة سلامة النفوس من اكتساب التعاليم الباطلة والعوائد السيئة، وهى أساس النظم التى أقيمت عليها الحضارة الأولى فى البشر من توخى الصلاح ودرء الفساد وإصابة الحق، سواء كان حصولها بالإلهام المودع فى الخلقة أم كان حصولها بواسطة تلقين الوحى الإلهى...

ومعنى وصف الإسلام فى الآية بالفطرة أنه جارٍ على ما فطر عليه البشر عقلا، فهو مقصود بالفطرة. فلأجل تلبسه بدلائل الفطرة أطلق عليه لفظ الفطرة كأنه هو الفطرة نفسها كما يقال فلان عدل.

فقد استبان - إذن - أن الآية دلت على أن جميع أصول الإسلام وقواعده تنفجر من ينبوع معنى الفطرة، والإحاطة بذلك ليست إلا لعلام الغيوب ولكن حظنا من ذلك ملاحظة أمثلة منها جامعة، والاهتداء بأشعة وصلت إلينا من منافذها الواسعة لنتدبر فيما وقع تعيينه من قبل الشارع. ونقيس عليه ما أشبهه فى حكمه»[١٣].

(جـ) حكمة أن الإسلام دين الفطرة:

ومن أجمل ما ذكر فى السبب الذى من أجله سمى الإسلام دين الفطرة ما ذهب إليه أحد العلماء الأجلاء حيث قال: «ثم إن الحكمة فى أن جعل الله الإسلام دين الفطرة أنه لما أراد جعله دينا عامًا لسائر البشرية، دائمًا إلى انقضاء هذا العالم، جعله مساوقًا للفطرة المتقررة فى نفوس سائر البشر لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم، وهو وصف الفطرة، لأن شعوب البشر - وهم مختلفون فى الأخلاق والعوائد والمشارب والتعاليم - لا يمكن جمعهم جمعًا عمليًا غير وهمى فى جامعة واحدة ما لم يكن عمودها وقاعدتها شيئًا مرتكزا فى سائر النفوس، وقدرًا مشتركًا بينهم لا يتخلف ولا يختلف، فذلك ضمان لانتفاء الغواية عن أتباعه وأمته بحيث لو انحرفوا عنه قليلاً لا يلبثون أن يراجعوه ويهتدوا إلى إقامته.

وقد بان بما قررته أن وصف الفطرة للدين مما اختص به الإسلام فلم يوصف دين من الأديان السالفة بأنه الفطرة، كما لم يوصف أحدها بأنه عام، ولا بأنه دائم.

فلا جرم أن هذه الأوصاف الثلاثة: العموم، والدوام، والفطرة، بينها تناسب وتلازم... إذ لا يسهل أن يضم الإسلام تحت جناحيه أمما مختلفة الحضارات، والآراء، والأخلاق، والعادات فى عصور مختلفة ما لم يكن مبنى أصوله على أساس واحد يجمعها وهو: أساس الفطرة. وبهذا يظهر موقع التزييل لآية وصف الإسلام بأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها بقوله تعالى: **«ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»** وإذ قد استبان أن الفطرة هى الأصل الجامع لحقيقة دين الإسلام كان حقًا على المتفقهين فى الدين أن يلحظوا تطبيق هذا الأصل فى مواقع الاستنباط فإن شرائع الإسلام آيله إليه، وملاحظة ذلك عون عظيم للفقيه عند التردد أو التوقف أو تعارض الأدلة»(١٤).

(د) إمكانية تغيير الفطرة:

بعد أن تبين لنا معنى الفطرة وكون الإسلام دين الفطرة وحكمة ذلك.. فإن التساؤل الأخير هو: هل يمكن لإحداث التغيير أن يتم تجاهل الفطرة أو تغيير الفطرة ذاتها؟

وكما سبق أن ذكرنا - قبل ذلك - فإن كل ما كان فطريًا فى الإنسان لا يمكن تغييره كلية أو تجاهله، فإذا حدث ذلك فإن هذا يكون تكلفًا ضد طبائع الأشياء يؤدى لامحالة إلى خلل وعدم توازن ونتائج سيئة. وسرعان ما يزول أى شىء حاول الإنسان أن يتكلفه وهو أصلاً بعيد عن طباعه، وكما يقول أبو الطيب المتنبى:

وأسرع مفعول فعلت تغيرًا تكلف شىء فى طباعك ضده

فالإنسان خلق منذ البداية كروح وجسد ولكل منهما حاجاته وإشباعاته التى لا بد منها، وأى ميل، أو تفريط، أو إفراط، أو تجاهل لأى منهما فإنما يعتبر ضد الفطرة ويؤدى إلى خلل كما سبق أن أوضحنا فى موضع سابق من هذا الفصل «فالإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التى بها يدرك النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك.. وحياة قلبه وروحه التى بها يميز بين الحق والباطل والغى، والرشاد، والهوى، والضلال، فيختار الحق على ضده»(١٥).

كما أن الإنسان خلق منذ البداية مفطوراً على الخير والشر وفيه الغرائز، والشهوات وفيه أصول الأخلاق الفاضلة، وأصول الأخلاق الرذيلة فمن حاول أن يهذب الإنسان ويغيره عن طريق إلغاء أو تجاهل جانب من هذه الجوانب تمامًا فإنه أيضًا يعتبر خاطئًا، وكما سبق، فإن النفس الإنسانية تتحرك بصورة دائمة بين الخير والشر، والمادة والروح، وأنه ليس هناك من يمكنه أن يصل إلى الخير المحض، ولا إلى الشر المحض، ولكن فى كل إنسان - مهما بلغت درجة الشر فيه - جذوة خامدة للخير، وأن لكل إنسان - مهما بلغت درجة الخير فيه - هفوات توقعه فى الشر. وأن نطاق التغيير

يكون بزيادة قدرة الإنسان على التغلب على جانب الشر فيه والاتجاه نحو المزيد من الخير والاستمرار عليه وذلك بمساعدة نفسه اللوامة التى تعمل على تزكية جانب الشر الذى تدفعه إليه نفسه الأمارة بالسوء ليصل إلى حالة الاطمئنان والأمن والرخاء والفلاح، أو ما يسمى بالنفس المطمئنة.

ولا يمكن أن يكون التغيير بتجاهل غرائز، أو شهوات الإنسان التى ركبت فيه ولكن يكون عن طريق توجيهها وتهذيبها، وإشباعها المشروع دون إفراط أو تفريط.

فالحد الذى يقوم عليه الإسلام فى كل ذلك وهو دين الفطرة، هو حد الوسط والاعتدال دون إفراط أو تفريط، أو تكلف أو مغالاة، أو تطرف، أو انحراف.

وهذا ما تجب مراعاته على كل من يحاول أن يمارس التغيير التنظيمى، أو الإصلاح فى أى موقع من المواقع، وعلى أى مستوى من المستويات، وكما يقول د. محسن عبد الحميد: «فعندما نخطط للتغيير علينا ألا ننسى جوهر الإنسان، كما فعلت المناهج التغييرية الأخرى[١٦]، وإنما لا بد لنا أن نأخذ مخطط الإسلام التغييرى فى هذا المجال فنطبقه بحسمه ومرونته، لأنه هو الحق الذى ندرك فى ظله الحقائق الثابتة والتوازن الأصيل...

فإن الله قد خلق الإنسان وأودع فيه دوافع فطرية تعبر عن تكوينه الخاص الذى تتفرع منه غرائزه التى تشكل أساس وجوده ولا يمكن للزمن أن يبدل، أو يقتل تلك الغرائز والنوازع الفطرية، فهى أصيلة فى الحياة الإنسانية فالإنسان هو الإنسان من حيث تلك الصفات الجوهرية. ولقد قرر القرآن ذلك فى قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

نعم إن تلك الغرائز يمكن أن تهذب وتوجه فى ظل مذهبية متناسقة حتى تتحرك فى مساراتها الصحيحة ولا تنتهى إلى انحرافات خطيرة وأمراض نفسية، وجنسية، واجتماعية»[١٧].

ثم يوضح نظرة الإنسان التوازنية لطبيعة الإنسان، وإشباع حاجاته المختلفة فيقول: «لقد نظر الإسلام إلى الإنسان من حيث هو جوهر أصيل له رغبات ذاتية فطرية لا بد أن تشبع وأن تحل مشاكلها فى ظل مذهبية ربانية تنظر إلى الإنسان نظرة أصيلة لا عرضية، ولذلك نجد أن الشريعة الإسلامية تعالج مشاكل الغرائز الإنسانية المتنوعة من مبدأ الاعتراف بوجودها.

- فجانبها الروحى يحتاج إلى مخطط عبادى يملؤه ويشعره بلذة العبودية لخالقه حتى لا يبقى تائها حائراً يعانى الفصام.

- وجانبها الجنسى يحتاج إلى مخطط اجتماعى أخلاقى يضبطه...

- وجانبها فى غريزة الشبع يحتاج إلى مخطط اقتصادى يحافظ على التوازن المعاشى الذى يمنع انتقال المجتمع إلى حياة الترف من جهة والجوع المهلك من جهة أخرى.

– وجانبها فى غريزة الطموح الإنسانى يحتاج إلى مخطط يحقق آدميته ويثبت له حرية مهذبة مضبوطة...

وكذلك كل غريزة من غرائزه لو دققنا النظر فيما شرع لها الإسلام وجدنا أنه أراد المحافظة على جوهر الإنسان ممثلاً فى شمولية غرائزه التى تستوعب كيانه كله، عن طريق خلق التوازن المطلوب بينها بحيث يأخذ بعضها برقاب بعض لآداء دورها كاملاً فى الحياة»[١٨].

نتائج العلوم التجريبية فى الغرب تتجه أخيراً نحو وسطية الإسلام

فى بحث حديث لعالمين من علماء الغرب[١٩] نجد انتقاداً علمياً حاداً للأفكار القديمة التى سادت الغرب فى القرون الأخيرة.. «والتى اصطبغت بصبغة مادية كرد فعل إزاء هيمنة الفلسفة المدرسية المسيحية على العقول، والتى وصلت إلى حالة من التحجر العقلى والتخبط الفكرى... وقد انتهت النظرة القديمة إلى الإلحاد والاستهتار بكل القيم الأخلاقية والروحية، وفسرت السلوك تفسيراً غريزياً فسيولوجيا، وتطورت فى العصور اللاحقة إلى مذهب مادى صارم يؤمن بأذلية المادة، ويرفض – من ثم كل ما هو غيبى ولا يعترف فى تفسيره لمختلف الظواهر إلا بنوعين من العلل هما الضرورة والصدق...

وإزاء هذه النظرة العلمية المادية النزعة برزت إلى الوجود فى مطلع القرن العشرين – نظرة علمية منافسة كان من أبرز روادها أباء (الفيزياء) الحديثة (كإينشتاين)، و(هايزينبرج)، و(بور) وغيرهم ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدة أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية التى كانت رائجة منذ عصر (أرسطو)، وحتى أواخر القرن التاسع عشر. ولقد أجمعت آراء كبار العلماء فى (الفيزياء) النووية و(الكوزملوجيا) فى هذا القرن على أن المادة ليست أزليه، وأن الكون فى تطور وتمدد مستمرين، فدعوا إلى الإيمان بعقل أزلى الوجود، يدبر هذا الكون ويرعى شئونه.

ثم أعقب هذا الجيل من الفزيائيين والفلكيين جيل آخر من أمثال (شرفغتون)، (والكس)، و(سيرى) و(بنفيلد) وقفوا حياتهم كلها على دراسة جسم الإنسان فانتهت بهم أبحاثهم إلى الإقرار بأن الإنسان مكون من عنصرين جوهريين – جسد فإن وروح لا يعتريها الفناء – وأن الإدراك الحى ليس شيئاً مادياً بحد ذاته، وأن الإرادة والأفكار ليست من صنع المادة ولا من إفرازتها، بل هى – على عكس ذلك – تؤثر تأثيراً مباشراً فى العمليات الفسيولوجية ذاتها. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية، شعر كثيرون من علماء النفس أن إخضاع العقل للغريزة فى طريقة التحليل النفسى وإلغاءه فى المذهب السلوكى قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من إنسانيته، فاقتحمت فى الخمسينات من هذا القرن قوة ثالثة عرفت فيما بعد باسم «علم النفس الإنسانى» ومن أبرز رواد هذه المدرسة (فرانكل) و(مازلو) و(مای) الذين يعترفون بأولية العقل، وبعدم قابلية حصره فى الخواص الكيميائية (والفيزيائية) للمادة، وبكون الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار،

ويرفضون – من ثم – تفسير السلوك البشرى كله بلغة الدوافع والغرائز. والضرورات (البيولوجية)، وردود الفعل الآلية، ويؤمنون عوضًا عن ذلك بما يسمى القيم الأخلاقية، والجمالية والجوانب الروحية، والنفسية، والفكرية»[٢٠].

ومما يثير العجب أن الذى هدم النظرية المادية ليست علوم الدين أو الفلسفة، ولكنها العلوم الطبيعية التى تتعامل أساسًا مع المادة، والتى استند إليها أصحاب النظرة القديمة فى تبرير وجهة نظرهم.

وعلى حد قول الفيزيائى (يوجين ويجنر) (Eugene Wegner) «كان جيل العلماء الطبيعيين، إلى عهد غير بعيد، ينكرون بشدة «وجود» العقل، أو الروح. على أن النجاح الباهر الذى حققه علم الفيزياء الميكانيكية والفيزياء العيانية بصورة أعم، وكذلك علم الكيمياء، قد حجب الواقع الجلى، ذلك الذى يقول إن الأفكار والرغبات والعواطف ليست من صنع المادة.

وكان مقبولاً عند العلماء الطبيعيين على نحو يشبه الإجماع أن لا شىء هناك سوى المادة»[٢١]، ثم جاءت نظرية النسبية و(ميكانيكا) الكم خروجا على تلك النظرة. «فلقد حلت الفيزياء فى القرن العشرين تدريجيا محل المذهب المادى بتأكيدها أن الفكر يقوم بدور جوهرى فى الكون. وإنه لأمر مثير حقا أن يصدر هذا التأكيد عن علم الفيزياء»!![٢٢].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

خلاصة:

وعلى ذلك فإن المذهبية التغييرية الإسلامية تعمل على العودة بالإنسان إلى الوسطية والتوازن والبعد عن الإفراط أو التفريط، ولا تنظر إليه باعتباره شيطانًا أو ملاكًا، وإنما باعتباره إنسانًا يصيب ويخطئ يثاب على الصواب ويعاقب على الخطأ، ماديا ومعنويا دنيويا وأخرويا، وأن له حاجات مادية وحاجات روحية يجب أن يتم إشباعهما بصورة متوازنة دون إفراط أو تفريط، وأنه يجب العمل على تغيير ما بنفسه والوصول إلى أعلى درجات التقوى والصلاح المؤدية إلى الفلاح التنظيمى ومن ثم الوصول بأدائه إلى أعلى درجات الإتقان والإحسان والاستفادة من كل الطاقات، والمواهب الكامنة لديه.

تطبيقات إدارية لمفهوم وطبيعة النفس فى الإسلام

إن النظرة إلى الإنسان، فى المدخل الإسلامى – كما سبق أن أوضحنا – تعتبر نظرة متكاملة باعتباره روحًا وجسدًا، مفطوراً على الخير والشر فلا هو شرير بطبعه (كما تصور ذلك نظرية X) ولا هو خير بطبعه (كما تصور ذلك نظرية Y)، ولكنه ينطوى على الأمرين كليهما، الخير والشر،

أو الفجور والتقوى، ولكن بنسب مختلفة بين الأفراد المختلفين، بل وبين الفرد الواحد فى المواقف المختلفة.

ومن ثم يجب أن تكون نظرة كل قائد مسلم لمرؤسيه نظرة شاملة متوازنة عادلة، وتحاول دائمًا أن تنفذ إلى جانب الخير فى النفس الإنسانية فتقويه وتدعمه، وتعمل فى نفس الوقت على إخماد جذوة الشر، أو الفجور الموجود فيها.

ويترتب على ذلك أيضًا أسلوب الإدارى المسلم فى الجزاء.

فالجزاء يجب أن يكون عادلاً، فيعاقب المخطئ على قدر خطئه، ويثاب المحسن على قدر إحسانه، وذلك ماديًا ومعنويًا، سلبًا وإيجابًا، كما يجب ألا ننسى فى دائرة الجزاء كمسلمين التذكير بالجزاء الأخروى، وأهميته ودوره فى إيجاد الوازع النفسانى لمراقبة المسلم لذاته خشية الله، وما سوف يلقاه منه - سبحانه وتعالى - يوم العرض عليه من ثواب، أو عقاب، وهو ما سبق أن أسميناه بمبدأ «الإحسان».

وفيما يلى سوف نستعرض بإيجاز نموذجين من نماذج الإدارة الناجحة التى أوردها القرآن الكريم لنرى بعض ما فيهما من مبادئ توضح الأسلوب الإدارى الشامل والمتوازن فى الإسلام وهما:

- نموذج ذى القرنين.
- نموذج سليمان (عليه السلام).

أولاً: نموذج ذى القرنين

حيث ذكره القرآن فى سورة الكهف ومما أخبرنا من قصته قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾ [الكهف: ٨٣: ٨٨] فـفى هذا النموذج القيادى الفذ تجد نظره متكاملة لطبيعة وجوهر الإنسان انعكست على أسلوب تعامله وتحفيزه سلبًا وإيجابا، ماديًا ومعنويًا، دنيويا وأخرويا. وذلك لتتناسب مع طبيعة وفطرة الإنسان التى تتضمن الروح والجسد، والفجور والتقوى. فنجده يقرر أسلوبه الإدارى التغيرى فيما يأتى:

أ - معاقبة المخطئ:

١ - وذلك بعقاب مادى ومعنوى فى الدنيا.

٢ – ثم تذكيره بما ينتظره من عذاب فى الآخرة، وهذا يشمل الروح والجسد وتكامل الدنيا والآخرة فى العقاب مصدقا لقوله تعالى عن ذى القرنين: ﴿ **وأما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا** ﴾.

ب – إثابة المحسن:

وذلك كما يأتى:

١ – تذكيره وإشعاره بالجزاء الأخروى وجعله فى المقدمة ﴿ **فإن له جزاءً الحسنى** ﴾.

وذلك يؤدى إلى إحياء روح الإحسان لدى الإنسان ليؤدى أى عمل بإتقان وإخلاص، ليس خوفا من مراقبة هذا أو ذاك، وإنما ابتغاء مرضاة الله وانتظار ثوابه، ومراقبة وتقوى لمن لا يغفل ولا ينام.

ولذلك كان تركيز ذى القرنين على الجزاء الأخروى أولا لمن أحسنوا، إدراكا نافذا وصائبا، وحكيما لذلك القائد الناجح، فما أحرى كل قائد مسلم فى أى منظمة أن يحيى ذلك الخلق لدى مرءوسيه.

٢ – إعطاؤه جزاء دنيويا يتناسب مع صنيعه؛ وذلك ماديا ومعنويا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وسنقول له من أمرنا يسرا** ﴾ والتركيز إنما جاء هنا على المعنوى لأنه غالبا ما يهمله القادة فى معاملة مرؤسيهم، فإذا استحق أحدهم مكافأة على عمل جيد أداه كان الاهتمام فقط بالعطاء المادى وكأن الإنسان حيوان لا يهتم إلا بالإشباعات المادية، ولقد ظلت هذه النظرة سائدة فى الفكر الإدارى منذ بدايته وإلى عهد قريب حيث بدأ الاتجاه الإنسانى فى الإدارة ولو نظريا أما عمليا وواقعيا فما أظن أن هذه النظرة مازال لها من السيادة حظ وافر»[٢٣]، ولكن ذا القرنين لا ينظر للإنسان تلك النظرة الأحادية المبتورة، ولكنه ينظر إليه باعتباره إنسانا له كيانه ووجدانه، وعاطفته، وروحه، وجسده فقبل أن يعطيه مكافأة مادية، ومع إعطائه وبعد إعطائه لابد مما هو أهم من ذلك وهو التقدير والثناء والقول الحسن والذكر الجميل عن أنه أحسن فى أداء واجبه، وهناك كثير من النصوص القرآنية فى غير هذا الموضع تؤكد أهمية هذا المبدأ وهو المعاملة الإنسانية والقول المعروف لأنهما أفضل من صدقة يمكن أن يتبعها معاملة غير إنسانية وسيئة، فما بالنا بمن يأخذ أجرا مقابل عمل ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٦٣: ٢٦٤]. ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإذا كان هذا هو سلوك القائد الأعلى فلا شك أنه يكون قدوة لجميع مستويات الإدارة فى التعامل مع المرءوسين.

(جـ) إرشاد المستضعفين إلى المنهج التغييرى الحق دون مقابل:

ويتضح ذلك من موقف ذى القرنين من أولئك القوم الذين بلغوا من التخلف درجة كبيرة حتى لقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا** ﴾ [الكهف :٩٣]، حيث طلبوا منه مطلبا وهو: ﴿ **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴾ [الكهف :٩٤]، فكان رد ذى القرنين عليهم: ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** ﴾ [الكهف :٩٥] ثم أخذ يشركهم فعليا فى بناء هذا الردم موضحا لهم عناصره - كيف - فقد ضمن لهم معرفة (سر الصنعة المتقدمة)، والتى تمكنهم من الاعتماد على الذات بعد ذلك، حيث قال: ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا** ﴾[الكهف :٩٦].

فكأنه بدلا من أن يعطيهم سمكة أعطاهم - ليس فقط الشبكة - وإنما المعرفة التى يتمكنوا بها من صنع الشبكة، وكل ذلك دون مقابل إنما ابتغاء وجه الله، وقياما بدوره الاستخلافى فى الأرض - ثم يذكرهم بأهم ما فى الأمر - وهو السبب فى كل هذه النعمة التى تعلمها، وهذا التمكن الذى عليه، وأنه بفضل رحمة الله تعالى وكرمه عليه، فكما سبق أن زهد فى أى مقابل مادى منهم نظير ما يقدمه لهم من خدمات جليلة قائلا لهم: ﴿ **مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ** ﴾، نجده أيضا يقول بعد بناء هذا السد: ﴿ **هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي** ﴾ ثم يذكر باليوم الآخر والحساب ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ [الكهف :٩٨].

إذن نستخلص من هذا الموقف أيضا:

١ - أن المؤمن حينما يكون على أرفع درجة من الحضارة والتمكن فى الأرض لا يستغل الضعفاء والفقراء والمتخلفين ولكن مهمته أن يعاونهم ويساعدهم على أن يغيروا ما بأنفسهم، دون عنت أو انتهازية.

٢ - إنه لا يأخذ حتى مقابل مساعدته ويكتفى بفضل الله الذى منحه إياه فإنه إنما يؤدى مهمة وكله الله بها.

٣ - إنه لا يساعد الآخرين بإعطائهم فقط لكنه يمكنهم من وسائل المعرفة الحقيقية التى تمكنهم من الاعتماد على الذات.

٤ - الدعوة المستمرة إلى التغيير الحق، وهو حمل الأنفس أن تستقيم على منهج الله وتؤدى له حق العبودية كاملا، فهو مصدر كل خير ورحمة، وهو الذى يحاسب ويجازى كل عامل عما قدمت يداه، ولذلك نجد ذا القرنين يذكّر هؤلاء القوم بكل ذلك بقوله لهم: ﴿ **هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ [الكهف :٩٨].

ثانيا: نموذج سليمان (عليه السلام):

فلنتدبر معا تلك الآيات التى وردت فى قصته فى سورة النمل والتى تتعلق مباشرة[٢٤] بهدفنا فيقول تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل: ٢٠: ٢١]، ولنقف عند هاتين الآيتين، لنتعرف على نموذج آخر للقائد اليقظ العادل الشاكر حيث يتضح منه ما يأتى:

أ - قائد يقظ:

فهو يقظ فى إدارته، فبالرغم من أنها تتكون من عدد هائل ومتنوع من المرءوسين حيث ﴿ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧]، إلا أنه اكتشف غياب الهدهد بمجرد غيابه عن موقعه الذى حدده له.

إذن فالقائد يجب أن يكون يقظا ومتفتحا لكل ما يحدث حوله فى منظمته، ليتأكد دائما أن كل شيء يسير كما سبق أن حدد له، وأن كل فرد يعمل ما طلب منه، ويؤدى الدور الذى كلف به.

ب - قائد جاد:

فهو لم يترك هذا الخطأ الذى ارتكبه الهدهد يمر دون أن يتوعده بالعقاب، وأمام باقي زملائه المرءوسين، أى أنه لابد وأن يكون هناك عقاب لمن يخطئ وأن هناك ثوابا للمحسن فلا يترك الأمر فوضى، وإلا سرت روح اللامبالاة والإهمال والتسيب.

جـ - قائد عادل:

فهو لم يجعل هذا العقاب مطلقا وإنما حدده ليكون على قدر الخطأ والجرم الذى ارتكبه الهدهد، إذا ثبت أنه أخطأ، وهذا ثابت لتغيبه دون إذن مسبق.

- فربما يكون الهدهد -مثلا- متكاسلا ومقصرا ومتهاونا ومستهترا ففى هذه الحالة لابد أن يعاقب ويعذب عذابا شديدا ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾.

- وربما يكون -مثلا- متمردا ومتعمدا وثائرا ففى هذه الحالة لابد أن يكون العذاب أكبر وقد يصل إلى الذبح ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾.

- وقد يكون الهدهد لديه عذر وحجة بينة وقاطعة فحينئذ عليه أن يأتي بها، لإنقاذه مما سبق أن حدد له من عقاب ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾.

ومن ثم يمكن استخلاص المبادئ التالية التى يجب أن يتبعها القادة عند عقاب المخطئ:

١ - لا يعاقب المخطئ إلا إذا ثبت عليه الخطأ، ولم يستطع أن يأتى بعذر يمكن قبوله ببينة واضحة.

٢ – أن العقاب يجب أن يختلف فى درجته حسب درجة الخطأ (حجما، وإصرارا، وتكرارا).

٢ / ١ فالخطأ الصغير ليس كالخطأ الكبير.

٢ / ٢ والخطأ العمد ليس كالذى حدث عن جهل وغير قصد.

٢ / ٣ والخطأ الذى يحدث لأول مرة ليس كالذى تكرر مرات عديدة.

د – قائد متواضع:

فهو قائد إنسان متواضع يعامل مرؤسيه بكل إنسانية ورفق ويظهر ذلك فى الموقف التالى من القصة عندما حضر الهدهد وجلس قريبا منه وحدثه حديث الواثق بأنه يعلم ما لا يعلمه سليمان نفسه..!! ثم قص عليه سبب غيابه، والدور العظيم الذى أداه أثناء ذلك الغياب، ومع ذلك قال له سليمان: ﴿ **سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ وأرسله.. إلى آخر القصة،! ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ [النمل: ٢٢].

هـ – قائد قادر على تنمية المواهب وتفجير الطاقات:

إنه قائد ناجح استطاع أن يحصل على أعلى أداء تنظيمى حيث كان أداء الدور لدى جميع الأفراد العاملين فى منظمته – مملكته – من أكمل ما يمكن، وهو الهدف الذى يسعى إليه فى النهاية أى قائد ناجح ولقد ظهر بوضوح الانصهار الكامل بين أهداف منظمته العليا وبين الأهداف الفرعية، كما بدا واضحا وجود درجة عالية من الفهم لطبيعة هذه الأهداف وطبيعة الدور اللامحدود المنوط بكل فرد لتحقيقها.

ويبدو ذلك جليا فى:

١ – موقف الهدهد: (كممثل عن الطير):

– الذى كان فهمه لهدف المنظمة وهو إعلاء كلمة لا إله إلا الله فى كل مكان واضحا.

– ثم فهمه لدوره وأداؤه لهذا الدور كان كاملا لتحقيق هذا الهدف.

– فكان موقفه سببا فى إسلام مملكة بالكامل هى مملكة سبأ.

٢ – موقف ودور عفريت من الجن (كممثل للجن):

وذلك عندما طلب سليمان من أحد الحاضرين أن يأتى بعرش بلقيس ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ [النمل: ٣٩].

٣ – موقف ممثل الإنس:

حيث بدا دوره أيضا واضحا حيث فاق الجن فى قيامه بالمهمة التى طلبها سليمان عليه

السلام : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[النمل: ٤٠].

و - قائد شاكر:

فهو قائد مؤمن شاكر لربه، كلما زاده من نعمه، ويبدو ذلك واضحا في موقفين من مواقف القوة والنعمة التي من الله عليه بها وهما:

١ - لما رأى العرش عنده فعلا في لحظة كما وعد بذلك الذي عنده علم من الكتاب فإن ذلك لم يزده إعجابا بنفسه وغرورا بملكه، وإنما كان رد فعله: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

فهو يعترف أن ذلك من فضل الله عليه، وأنه ابتلاء له، هل يشكر ويذكر ذلك الفضل، أم يكفر؟ ولاشك أن الجزاء معروف وهو إنما ينعكس على النفس في الحالتين والله غني وكريم، والشكر يؤدي إلى المزيد من النعم، والكفر يؤدي إلى زوالها «انظر نموذج شكل(٥)،(٨)».

٢ - لما سمع وفهم قول النملة تحذر باقي النمل منه هو وجنوده أن يحطموا بيوتهم حينئذ ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وهذا الدعاء فيه قمة الشكر لله، والإيمان به حق الإيمان واعتراف بفضله ونعمه.

فهو بذلك يعطي صورة صادقة وكاملة لاكتمال التغيير في جانبه الإيجابي كما سبق أن تناولناه، وكما يلخصه شكل (٥) ، (٨).

خلاصة ونتائج

لقد تناول الباحث في هذا الفصل طبيعة النفس محاولا تحديد طبيعتها وما فطرت عليه من خير ومن شر، وحالاتها المختلفة التي يمكن أن تتكون عليها مع الإشارة إلى موقف المدارس والنظريات الإدارية من النفس وانعكاس ذلك على الأسلوب الإداري المستخدم «نظرية X، ونظرية Y».

ومن أهم ما توصل إليه الباحث في هذا الفصل ما يأتي:

١ - أن الإنسان ليس شرا محضا ولا خيرا محضا، وإنما هو خلق مفطور على الخير والشر، أو الفجور والتقوى.

٢ - أن درجة الفجور والتقوى تختلف من شخص لآخر، ومن وقت لآخر بالنسبة للشخص الواحد، ويتوقف ذلك على مدى ما يقوم به من تزكية تجاه نفسه.

٣ – أن ما سبق يجب أن ينعكس على الأسلوب الإدارى فى معاملة الناس.

٤ – أن النفس ذات حالات شديدة التغيير فهى إما: أمارة بالسوء، وإما لوامة، وإما مطمئنة، ويحتاج الانتقال من حالة إلى ما هو أفضل منها إلى المزيد من المجاهدة والتزكية.

٥ – على من هم فى موقع القيادة والتغيير أن يراعوا تكامل تلك الجوانب؛ وأن يكونوا من العوامل الخارجية التى تساعد الأفراد على زيادة وتعميق جانب الخير فيهم والتغلب على جانب الشر وتقليله بقدر الإمكان وبلا ملل.

٦ – أن الإسلام دين الفطرة، فهو ينظر للنفس نظرة متكاملة تراعى جميع جوانبها ونواحى نقصها وقصورها دون إفراط أو تفريط، وهذا ما يجب على كل قائم بالتغيير أن يأخذه فى الاعتبار.

هوامش

(١) لمزيد من التفصيل حول هذه المداخل والنظريات يمكن الرجوع إلى :

- John Morse & Jay Lorsch, "Beyond Theory Y," Harvard Business Review, (May - June, 1970).

Douglas McGregor, The Human Side of Interprise, (New York: McGraw - Hill, Inc., 1960).

- د. على السلمى ، **تطور الفكر التنظيمى** ، (الكويت : وكالة المطبوعات، ١٩٧٥).

- د. أحمد فهمى جلال، «نحو إطار فكرى للتحليل التنظيمى»، **مجلة الإدارة** (يوليو ١٩٨٠).

(٢) د. أحمد فهمى جلال، مرجع سابق، J.Morse & J.Lorsch, op.cit.

(٣) أبوحامد الغزالى، **إحياء علوم الدين**، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٩٨٦) الجزء الرابع ص٣.

(٤) ابن كثير، **مرجع سبق ذكره**، ٤ / ٥١٢

(٥) ذكره أيضا : محمد فؤاد عبدالباقى، **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، (دار الريان للتراث) ٣ / ٢١٢، حديث رقم ١٧٠٢

(٦) ابن كثير، **مرجع سبق ذكره** ٤ / ٥١٦

(٧) **مرجع سبق ذكره مباشرة** ٤ / ٤٥٣

(٨) الحديث رواه الترمذى **فى كتاب تفسير القرآن** باب /٣/ حديث ٢٩٨٨

(٩) ابن القيم، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٨

(١٠) انظر على سبيل المثال – تأييدا لذلك– (سورة الحجر: ٣٩ :٤٢)، (النمل: ٩٨ : ١٠٠) ، (إبراهيم:٢٢).

(١١) **المعجم الوسيط**، الجزء الثانى، ص٧٢٠

(١٢) محمد الطيب بن عاشور، **أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام** ، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦)، ص ١٦ :١٧

(١٣) **مرجع سبق ذكره مباشرة** ص ١٧ :١٩

(١٤) **مرجع سبق ذكره مباشرة** ص ٢٠ :٢٣

(١٥) ابن قيم الجوزية ، **الفوائد** (القاهرة: دار الريان للتراث ١٩٨٧)، ص ٨٧

(١٦) سبق أن أشرنا إلى أمثلة من هذه المناهج فى هذا الفصل.

(١٧) د. محسن عبدالحميد، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٩ :٨٣

(١٨) **مرجع سبق ذكره** مباشرة، ص٨٠ :٨٣

(١٩) وهما: (روبرت أغروس) R.M.Augros الحائز على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لافال بكندا، و(جورج ستانسيو) G.N.Stanciu الحائز على درجة الدكتوراه فى الفيزياء من جامعة « ميشيغين » بالولايات المتحدة ، وبحثهما هو: روبرت م. أغروس وجورج، – ستانسيو، **العلم فى منظوره الجديد**، ترجمة د.كمال خلايلى، (الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، فبراير ١٩٨٩) ص٢٠٩

(٢٠) روبرت أغروس وجورج ستانسيو، **العلم فى منظوره الجديد**، مرجع سابق ص٨ :١٠

(٢١) **المرجع السابق** ص ٢٢ :٢٣

(٢٢) **المرجع السابق** ص٢٣

(٢٣) راجع لتفصيل ذلك، الفصل الخامس من هذا البحث

(٢٤) راجع القصة بتفصيلها فى سورة النمل، الآيات من ١٥ :٤٤

خاتمة ونتائج الباب الثالث

تم فى هذا الباب الوقوف على مفهوم وطبيعة النفس من حيث: جوهرها ومفهومها، كيف بدأ خلقها؟ ومم خلقت؟ ولماذا خلقت؟ وما هى علاقتها بما يحيط بها من أكوان أخرى؟ ثم حاجاتها، وكيف يمكن إشباع هذه الحاجات؟ ثم ما فطرت عليه من فجور وتقوى، وعلاقة ذلك بمداخل ونظريات الإدارة المختلفة، ثم حالاتها المختلفة التى يمكن أن تكون عليها فى أى لحظة من اللحظات. ثم جوهر الفطرة وإمكانية تغييرها؟ وأخيراً تم تناول بعض التطبيقات الإدارية المتكاملة من خلال نموذجين للقيادة - فى القرآن - وهما:

نموذج ذى القرنين، ونموذج سليمان (عليه السلام).

النتائج:

من خلال دراسة الموضوعات السابقة فى هذا الفصل أمكن التوصل إلى عدة نتائج أهمها:

١ - إن توجه القائمين بالتغيير يجب أن ينصب على سنن، وقوانين تغيير ما بالأنفس، وليس الأنفس نفسها كجوهر وفطرة ثابتة.

٢ - إن مفهوم النفس الذى نأخذ به هو اعتبارها كلاً مركبا من روح وجسد.

٣ - إن الإنسان قد بدأ خلقه من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ونفخ فيه من روح الله.

٤ - إنه يتناسل من خلال عملية الزواج، حيث خلق منه زوجه ليسكن إليها. ومكونًا الوحدة الاجتماعية التنظيمية الأولية وهى الأسرة.

٥ - إنه مخلوق لغاية، هى عمارة الأرض، والاستخلاف فيها وذلك من خلال القيام بحق العبودية كاملاً، بالوقوف على أمره ونهيه.

٦ - إنه خلق مزوداً بكل ما يمكنه من أداء مهمته.

- من قوة بدنية متكاملة.

- ومن أدوات الإدراك والحس والمعرفة وأهمها، السمع، والبصر والفؤاد.

- ومن علم الأسماء كلها، وعلم البيان.

٧ - إن علاقته بالكون الذى يحيط به أنه كون مسخر له ذلول، وصديق، مؤمن بالله وموحد به، وأنه فُضِّل على سائر خلق الله من ملائكة وجن، وسائر المخلوقات الأخرى التى فى الكون والتى خلقت لخدمته.

٨ – إن الإنسان له حاجات أساسية لابد من النظر إليها نظرة متوازنة وإشباعها الإشباع السليم حتى يمكن تحقيق الفلاح المنشود، وهى:

– حاجات مادية (غرائز مختلفة، شهوات).

– حاجات روحية وعقلية.

وهى حاجات نابعة من طبيعة تكوينه، ويجب على كل من يقوم بالتغيير التنظيمى، أو الإدارة أن يراعى أنه لن ينجح ما يقوم به من تغيير إلا إذا كان هناك إشباع متوازن لهذه الحاجات دون إفراط أو تفريط نحو أى منها.

٩ – إن الإنسان قد خلق منذ الأزل، وفطر على كل من جانبى الخير والشر. أو الفجور والتقوى.

١٠ – وإنه يعمل من خلال التزكية والدس لزيادة جانب التقوى، أو زيادة جانب الفجور، ومن ثم فإنه المسئول الأول، والأخير عما يحدث من نفسه من سلوك.

١١ – إن النظرة الاحادية للنفس باعتبارها خيِّرة، أو شرِّيرة والتى سادت مدة كبيرة من الزمن فى الفكر، والتطبيق الإدارى ليست سليمة.

١٢ – ولكن يجب النظر إلى الناس باعتبار أن فى كل منهم جانبًا خيراً، وجانبًا شريراً ولكن بدرجات مختلفة، وأن على الإدارة أن تساعد الإنسان ليصل إلى أقصى درجات التقوى ومن ثم الفلاح، ويبتعد عن الفجور والشر.

١٣ – إن النفس ذات طبيعة موارة متحركة متغيرة على ثلاث حالات:

أ – نفس أمارة بالسوء، ويجب التصدى لها والعمل الدائم لتغييرها.

ب – نفس لوامة تحاول كبت الأولى ومقاومتها، فيجب تقوية جانبها.

جـ – نفس مطمئنة وهى نتيجة ومحصلة الصراع بين اللوامة والأمارة، فإن كانت اللوامة قوية وتمكنت من دحر وكبت الأمارة والوصول بالنفس إلى أعلى مراتب التقوى. فإنها تكون حينئذ النفس المطمئنة وهذا هو الهدف التغييرى النفسى على المستوى الفردى.

١٤ – يجب أن يكون هناك هدف واضح لعملية تغيير النفس وهو الوصول بها إلى حالة الاطمئنان وهذا أمر ليس بالهين وإنما يحتاج إلى جهد وجهاد مستمرين.

١٥ – إن الإسلام هو دين الفطرة لأنه هو الدين الوحيد الذى جاء للناس كافة، كما أنه جاء خاتمًا إلى أن تقوم الساعة، فهو دين عام ودائم.

١٦ – وإن الفطرة يقصد بها أساسًا ما فطرت عليه النفس منذ نشأتها من حاجات، ومكونات، وأخلاق.

١٧ - إن جوهر النفس وفطرتها تعتبر من الأمور الثابتة التى يصعب تغييرها، وإنما يمكن فقط تهذيبه وتوجيهه والاستفادة بكل جوانب النفس فى ضوء ما فطرت عليه وحسب فهمنا لها، وأن أى تجاهل، أو إهمال لأى عامل من العوامل التى فطرت عليها الناس يؤدى إلى خلل واضطراب فى عملية التغيير، كما حدث فى تجارب التغيير المختلفة الأخرى.

١٨ - إن على كل مدير أو قائد أن ينظر نظرة شاملة للإنسان الذى يرأسه ويتعامل معه بحيث يحقق له إشباعًا متوازنًا ويكافؤه على كل عمل يعمله:

- روحيًا وجسديًا.
- معنويًا وماديًا.
- سلبيًا وإيجابيًا.
- دنيويًا وأخرويا (بالتذكير بالحساب الأخروى).

١٩ - وذلك لتحقيق هدف واضح، ومحدد وهو إمكانية الاستفادة من كافة الطاقات الإنسانية الظاهرة والكامنة لأداء العمل والدور المطلوب بإبداع وإتقان وإحسان، ودون كبت، أو إهمال، أو إعاقة، أو إغفال لأى من هذه الطاقات خاصة، وأنها هى المحدد الأساسى لما يمكن أن يحدث لأى قوم من فلاح، أو خسران.